










أنطوان الدّويهي

# حامل الوردة الأرجوانية

رواية



**الطبعة الثانية**

القائمة الطويلة للجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) 2014

# حامل الوردة الأرجوانية

أنطوان الدّويهي






# حامل الوردة الأرجوانية



**الطبعة الأولى: 1434 هـ - 2013 م**

**الطبعة الثانية: كانون الثاني/يناير 1435 هـ - 2014 م**

**ردمك 978-614-01-0847-9**











عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb



التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

لا أدري أيّ تسمية ستحمل هذه الأوراق التي سأودعها رانيا لدى زيارتها المقبلة لي والتي ضمّنتها قصة اعتقالي الغريبة في «حصن الميناء». سأترك لها، في حال نشرها الأوراق، وهو أمرٌ غير مؤكّد قطّ، حريّة الخيار بين بضعة عناوين، مثل «بوصلة الروح»، أو «هواجس الفجر»، أو «حامل الوردة الأرجوانية»، أو «مدوّنات حصن الميناء»، أو سواها. لا بد أنها ستستغرب الأمر وترفض المهمة. لكني سألحّ عليها فتريحني من مشقّة الخيار، إذ لم يعد لديّ الوقت للتفكير في ذلك.

## - ١ -

لا تزال رانيا تزورني مرّةً في الأسبوع منذ توقيفي قبل شهرين، مثلها مثل أمي البالغة الرابعة والثمانين. رانيا يوم الأربعاء ووالدتي يوم الجمعة، ولا أحد سواهما. فأنا رغبت ذلك ورجوت آمر السجن عدم استجابة طلبات أخرى لرؤيتي فلبّى التماسي.

كان اعتقالي بمثابة المفاجأة الكبرى واللغز المحيّر لكلّ محيطي ومعارفي في الوطن والمهاجر. وما زاد في الاستغراب أنه لم يُوجَّه إليَّ حتى الآن اتّهام ولم يحقّق معي أحد، فبقي السرّ مطبقاً. إني في نظر الكلّ مثال الرجل الهادئ، المسالم، المقيم في عالمه الخاص، الذي لا تشوب حياته شائبة. وقد علمتُ أن المحاولات الكثيرة لمعرفة سبب الاعتقال لم تصل إلى نتيجة.

أما أنا، وهذا أمر لم أبح به من قبل، فعلى رغم جهلي سبب اعتقالي، فإنّي لم أستغربه ولم أفاجأ به حقًّا. إنه لشيء يصعب تفسيره. ولعلّ ما يُلقي بعضًا من الضوء عليه، تلك العبارة التي كانت تردّدها أمي على مسمعي في العديد من الأوقات: «لا تخشَ شيئًا، فما يخشاه المرء يقع فيه». كانت تقولها بحسّ العليمة بدواخل نفسي، وبقلق الخائفة عليّ من مصاعب الحياة. ومع أني لم أكن أخشى الاعتقال، فقد كنت على الدوام ومنذ مستهل ذاكرتي، شديد التعلّق بحريتي، وهي سمة غالبة على ذاتي الأعمق، ونابعة من المناطق القصيّة في وجداني وفي لاوعيي، حيث يُحفَظ ما أشعر أنه جوهري. شيء سحري لا دور لي ولا إرادة في تكوينه، ولا قدرة لي أو لأحد على المساس به وتغيير ذرّة فيه، تسكنه نزعات وهواجس دفينة، من بينها هاجس الحريّة.

فطالما شكرتُ الخالق على وجودي في هذه الإمارة الجبلية الصغيرة المفتوحة على البحر، المشمولة من زمان بنعمة الحرية وسط محيط فاقدٍ لها، تمتدّ جذوري في أرضها الواحدة مئات السنين. لكن الإمارة أيضًا لم تعد في منأى عن رياح التسلّط التي تسرّبتْ إليها شيئًا فشيئًا في السنوات الأخيرة، باعثةً فيها قلقًا غريبًا وظواهر اضطراب غير معهودة.

فأنا منذ مطلع صبايَ، لم تراودني قطّ فكرة التجوال شرقًا. أكثر من ذلك، أخشى سلوك هذه الوجهة، ولا أتصوّر نفسي متنقّلًا في مكان، مهما كان مدهشًا، إذا كان مقموعًا. أخشى أن يفتقر موقفي إلى المنطق والعقلانية، مع أنّه ليس موقفًا، أو أن ينطوي على مغالاة لا أريدها، أو على حكمٍ صارم لا أحبّه ولا أرضاه. لكن الأمر خارجٌ تمامًا عن إرادتي مهما حاولتُ إقناع نفسي بغير ذلك. أشعر مسبقًا بما يشبه الاختناق في تلك الأمكنة، فلا بدّ أن ينتفي اهتمامي بأيّ شيء فيها، ولا بدّ أن تمتلكني عند وصولي إليها رغبةٌ واحدة هي رغبة الخروج في أسرع وقت منها، فلماذا أذهب إليها؟ لذلك، ينتابي الأسى لأني لم أزر حتى الآن العديد من حواضر الشرق العريقة ولم أتجوّل في أنحائها وألج روحها، وأشعر بالحزن لأني لم أعرف الصحارى والهضاب المحيطة بها، على رغم إقامتي على تخومها، وانجذابي الدائم إليها.

من الغريب أني لم أتحدّث عن هذا الأمر من قبل، ولم أتناوله إلّا في لقاءاتي مع آنّا منذ نحو ستّة عشر عامًا. فهو من البداهة لديّ بحيث لا أفكّر فيه، ولم يكن ليخطر في بالي لولا اعتقالي.

عندما كنت أجلس مع آنّا وجهًا لوجه في مقاهي نهر

السين، أو في مقاهي الفنادق الصغيرة التي كنا نرتادها عند شاطئ المحيط، كان ينتقل إلينا من وراء بلّور النافذة ذلك السحر الذي لا يوصَف، سحر المدى المسكون بهبوط الليل، والمطر الهاطل رذاذًا، وخيالات مبهمة لطيور عابرة، وأضواء بعيدة خافتة، ومراكب راسية، وصوت المدّ والجزر المتسرّب إلينا، عميقًا، أليفًا، مفعمًا بإيقاعات وعوالم لا تُدرَك، كأنه همس أمهاتنا قبيل رقادنا في أسرّة الطفولة. حينئذٍ كان ينظر أحدنا طويلًا إلى الآخر، وغالبًا ما كنا نتبادل الأخبار حول الأسفار والأمكنة التي نحبّها.

كانت تلك الحوارات، كما أُدركها اليوم، محاولة منّا لملء المدى المسائي وراء النافذة بأشياء ذاكرتنا المحدّدة، الملموسة، مما يخفّف ربما من انسكابه المهول فينا، ويخلق ألفةً بشرية بينه وبيننا. أو ربما كانت رغبة دفينة لدينا لإيداعه أشياء ذاكرتنا ورسمها فيه، فتصبح منه ويصبح منها، ويوليها سرّه وديمومته، وعودته المؤكّدة، التي لا يعتريها شكّ، كلّ يوم، منذ ملايين السنين، فلا تبقى تلك الأشياء حكرًا على ذواتنا وأجسادنا، المصابة بالهشاشة، الموعودة بالزوال.

كنت أحدّث آنّا عن سمائنا الليلية البالغة الصفاء، المرصّعة بنجوم لا تُحصى، وعن الشعور بأن تلك النجوم

المرتعشة هي على قربٍ مذهل منا، كأنها في متناول يدنا، أو كأنها جزء حميم من ممتلكاتنا الأرضيّة، فوق سفوح «القرنة السوداء»، سقف المشرق. وكيف في الصباحات الخريفية، حين كان يتوقّف المطر ويحلّ الصحو الباهر، كان باستطاعتنا من ذلك الارتفاع رؤية السفن الصغيرة، البعيدة، الراسية في البحر قبالتنا، ورؤية الجزر النائية بالعين المجرّدة. كما كنت أخبرها عن الطرق الجبلية التي أحبّها، والتي طالما اجتزتُها سيرًا على القدمين، في أوقات النهار والليل، عابرًا الغابات والتلال والمطلّات التي أعرفها حجرًا حجرًا. وكيف أن تلك الأمكنة مسكونة بأشخاص غير مرئيين، قد فارقوا الحياة من زمان، أعرفهم ويعرفونني، وأحبّهم ويحبّونني، وأكاد ألمسهم من شدة حضورهم وأرى ما يفعلون وأسمع ما يقولون وهم يرنون إليّ في مسيري.

وبدلًا من أن تحدّثني آنًا في تلك اللقاءات عن السهول الغربية وشواطئ المانش حيث أمكنة طفولتها ومرقد أجدادها، كانت تخبرني عن أسفارها إلى الشرق. كانت تصف لي رهبة الهضاب، ورونق الصحارى الشاسعة، المجرّدة، المرتفع فوقها بدر كامل. وكانت تتوقف طويلًا عند وصف المدائن التاريخية في اليمن، وبلاد ما بين النهرين، وبرّ الأناضول، وبلاد فارس، التي تعرّفت إليها عن كتب وتكنّ لها حبًّا لا يُضاهى.

بذلك الخفر الذي هو خفرها، كانت آنّا تستغرب كيف لم أزر هذه الأمكنة القريبة من مسقط رأسي، وكيف هي وليس أنا مَن يتحدّث عنها بهذا الاندهاش. لم أكن أقوى على الإجابة، خوفًا من إضعاف علاقتها بتلك الأنحاء، إذ كان يسرّني شغفها بها. كنت أكتفي بالقول: «لست أدري». كنت أحسد آنّا على قدرتها على الفصل العميق داخل نفسها بين أنظمة الاستبداد وسحر حواضر الشرق، وهو أمرٌ لا أقوى عليه البتّة. لكنني أدركتُ شيئًا فشيئًا أن هذا الفصل غير قائمٍ لديها وهي لم تفكّر فيه ولا تعيه، وأن المسألة لا تُطرَح عندها على هذا النحو قطّ. كانت تعتقد على الأرجح أن حال الاستبداد الراسخة، العميقة، الدائمة، هي جزء طبيعي من تلك الأمكنة، مثلها مثل عمائرها، وآثارها، وأطياف ناسها، وصبحها ومسائها. وكنت في قرارتي أحسدها على ذلك أيضًا. فعلاقة آنّا بأراضي الشرق هي علاقة المسافر، العابر، المكتشِف، وعلاقتي بها هي علاقة المقيم، المتجذّر، المتألّم، والرؤيتان لا تنسجمان.

- ٢ -

لا يمرّ يوم من دون أن أستعيد لحظة اعتقالي. ليس لأحاول معرفة الأسباب، كلّا، بل لأن تلك اللحظة تشدّني إليها على نحوٍ مدهش، وهي منذ وصولي إلى هنا موضع تساؤلي الدائم. أراني مأخوذًا بها كأنها جرمٌ من عالم آخر هبط فجاةً عليَّ، على رغم تخوفي القديم من هبوطه، أو كأنها حلمٌ هرب من عالم الرقاد يدخل فسحة اليقظة ويضحي حقيقة واقعة لن تتبدّد، أو كأنها بحيرة ليليّة تدعو الناظر إليها بقوة ساحرة إلى الارتماء والغرق فيها.

وأنا إذ أورد صورة الجرم فإني لا ألجأ فيه إلى تشبيهٍ أدبي بل إلى ذكرى أليمة. هذه الذكرى، على هولها، ومع أنها أكثر مأسويةً بما لا يُقاس من اعتقالي، تلقي ضوءًا آخر عليه يُضاف

إلى الضوء الذي ألقته عبارة أمي. فاعتقالي ليس فقط من الأحداث التي إن خشيتها وقعتْ، بل هو أيضًا من الأحداث التي تصيب، لا أحد يدري لماذا، ما هو نقيضها. فمثلما الخشية تجذب، النقيض يجذب أيضًا. قبل أكثر من عشرين عامًا كان لأخي الأصغر رفيقٌ من زمن الطفولة ندعوه تحبّبًا موري - من مُراد - حضر هو أيضًا إلى مدينة السين هربًا من الاضطرابات الدامية التي شهدتها بلادنا آنذاك كمقدّمةٍ لتسلّل شبح الاستبداد إليها. كان موري على قدرٍ كبير من الهدوء والدعة، فضلًا عن روح المحبة والتسامح ورفض العنف المتأصلة فيه، ونأيه بنفسه عن النزاعات والصغائر، وهي صفات تتجلّى لديه أكثر ربما من أيّ شخص عرفته في حياتي. كان يهوى الرسم والعزف على الغيتار الذي رافقه في هجرته، وكان من الخفر بحيث ينسى المرء أحيانًا وجوده حيث يكون. وبينما، ذات يوم، كنت أزور شقّة أخي، خلتُ نفسي وحيدًا فيها، إلى أن وقع نظري مصادفةً بعد ساعة على مُراد جالسًا على أريكة في أحد أركانها وهو يفكّر. سألته مندهشًا: «أنتَ هنا؟». ابتسم من دون أن يُجيب. قلت له حينئذٍ مازحًا: «إذا سقط نجمٌ من السماء فسيقع على رأسكَ يا موري!».

كم كان حزني عظيمًا حين بعد أشهر، صحّتْ نبوءتي. فما إن أنهى مُراد دراسته في معهد الفنون حتى طلب منه والده

العودة إلى البلاد. كان على علاقةٍ بصبية جميلة يحبّها وتحبّه، ولا شك في أن الوالد كان يخشى ارتباطه النهائي بها وتأسيس عائلته وتربية أولاده حيث هو، وهي أمور يرفضها أهله، مثلهم مثل معظم الأهل في مجتمعنا. هكذا، عرف الشاب صراعًا مؤلمًا بين احترامه رغبة أبيه وتعلّقه بمدينة السين وفتاتها. كان الوالد شديد الإلحاح لم يتراجع عن موقفه قيد أنملة، وانتهى الأمر بأن قرّر مُراد العودة مرغمًا، مغلّبًا نداء الواجب على مشاعره. كانت البلاد لا تزال في مهبّ الريح، الحروب الصغيرة متنقّلة من مكان إلى آخر، والطرق محفوفة بالأخطار. وبعد أشهر قليلة على عودته، احتاج إلى عدّة تلوين، قصد مع رفيقين له المدينة البحرية المجاورة بحثًا عنها. لم يدروا أنهم كانوا على موعد مع كمين لم يكن يقصدهم ولا علاقة له بهم قطّ، نصبته جماعة مسلّحة من أحد المذاهب لتثأر في صورة عمياء لقتلى سقطوا لها قبل يوم. اختار المسلّحون المدخل الجنوبي للمدينة الذي تسلكه في نظرهم غالبية من المذهب الآخر. في لحظة معيّنة، صدف فيها مرور سيارة مُراد - وهو ليس من هذا المذهب ولا من ذاك، ولا من أيّ مشربٍ آخر - فتح الكامنون نيرانهم عشوائيًا على عابري السبيل، فقُتل عددٌ كبير من الناس الأبرياء الذين لا شأن لهم في النزاع، من بينهم مُراد ورفيقاه. وقد رأيته، يا للمشهد المفجع، مقتولًا، في

صورة على الصفحة الأولى لإحدى الصحف، هو الذي أمضى حياته في الظلّ الأعمق. كان جالسًا على مقعد السيارة، هادئ الوجه، مغمض العينين، كأنه غلب عليه النعاس على تلك الأريكة في الشقة الباريسية، قبل أن يقع عليه النجم الهاوي. ولم يقوَ والده على تحمّل موته فرزح تحت وطأة الحزن والندم وقضى نحبه بعد حين.

عندما، بعد ذلك، قُتِل الرهبان السبعة في أعالي جبال الأطلس، كان مُراد هو أوّل من ورد في فكري. ليس لأنه أفضل حظًا منهم، كونه لم يعِ موته المفاجئ بتلك الرصاصات المجهولة، بينما هم عاشوا عميقًا موتهم، منذ ليلة اختطافهم إلى ليلة قتلهم بطريقة مروّعة يأبى قلمي ذكرها، فكيف بوصفها؟ فالأرهب من الموت هو وعي الموت. وأنا لا أستطيع ذكر وسيلة قتلهم بالإسم لأنها تشكّل انحطاطًا للطبيعة البشرية لا أحتمله، وتلويثًا لقاموسي ولغتي لا أقوى عليه، وأستغرب كثيرًا استعمالها السهل الشائع. غير أني لا أتكلّم هنا عن الرهبان السبعة لهذا الغرض، بل للتعارض الهائل بين ما هم عليه من جهة، وواقعة قتلهم من جهة أخرى. إنه النقيض الذي يجذب النقيض. ومثلما عرفتُ مُراد، عرفتُهم هم أيضًا ولو في صورة مختلفة. كان ذلك قبل سنوات عديدة. فضمن توقي الدائم إلى اكتشاف الأمكنة والمشاهد، استقللتُ القطار

ذات صباح من باريس إلى جبال السيڤين. ليس القطار السريع العادي الموصل إلى مرسيليا عبر ليون، بل قطار بطيء يتّجه هو أيضًا إلى شاطئ المتوسط، لكن في مسارٍ طويل، متعرّج، يمرّ صعودًا بجبال الأوڤيرنيه، ثمّ السيڤين، قبل أن ينحدر نحو مدينة نيم الرومانية، ثم البحر. هو قطار خارج الزمن الأوروبي لا يستقلّه غير محبّي الطبيعة والمسافرين الهاربين من وطأة الحياة. خلال رحلتي توقّفتُ يومًا وليلة في قرية لابستيد الجبلية. وبينما كنت أجول في الطبيعة الخلّابة حولها، اجتزتُ مصادفةً إحدى الغابات التي أوصلتني إلى مُطلّ يرتفع عليه دير «سيدة الثلوج»، حيث يقيم «الحبساء الصامتون»، المنتمون إلى جماعة رهبانية صغيرة تفرض على نفسها، إضافةً إلى النذور الثلاثة المعهودة، نذر الصمت. قلت في نفسي باندهاش: هذا هو المكان الأكثر سكونًا وسلامًا في هذه القارّة، حيث، في قلب الطبيعة الشاسعة، النائية، العميقة الهدوء، البالغة الجمال، يعيش هؤلاء الحبساء الصامتون. بعد سنوات، كان الرهبان السبعة الذين عُلِّقتْ رؤوسهم المقطوعة على غصون الأشجار حول ديرهم في جبال الأطلس، من الحبساء الصامتين أنفسهم الذين يُقيمون في «سيدة الثلوج».

# - ٣ -

كان الوقت تخطّى قليلًا الثانية بعد منتصف الليل حين سمعتُ وقع تلك الخطى على الدرج الخارجي. لم أتبيّن ما هي للوهلة الأولى بسبب الطقس العاصف والمطر المنهمر بلا انقطاع منذ مطلع المساء. من زمان اعتدتُ السهر المتأخّر بينما ترقد والدتي في غرفتها، في بيتنا الفسيح المبني بالحجر، الذي يعلوه قرميد أحمر، وتحيط به حديقتان، حديقة صغيرة من السنديان والصنوبر الساحلي، وحديقة فسيحة من البرتقال والرمّان واللوز، تعزله بسورها العالي عن جواره. يشرف البيت، جهة الشرق، على سهول الزيتون المترامية وفوقها جبل المكمل المغطّى بالثلوج، وجهة الغرب، على وادي نهر جوعيت، المرتسمة في أفقه قلعة صنجيل ثمّ البحر. يبدو بيتنا

وحديقتاه كواحةٍ خيالية في محيطٍ مشوّه بمختلف أشكال البناء الهجين، وقد اجتاح الاسمنت معظم أنحاء البلدة التي فقدت هويتها المعمارية وانحسرت حدائقها، الواحدة تلو الأخرى، إلى حدّ الزوال. ويستغرب معظم الناس احتفاظي بهذا المنزل الكبير وحديقتيه، التي أتتني من طريق الوراثة، وتركي لها كما هي عليه منذ أكثر من قرن، بينما بإمكاني استثمارها في مشاريع بناء تدرّ عليَّ أموالًا طائلة. ومع أنهم لا يعرفون الكثير عن كُتبي، فهم يكنّون لي المودّة، ويحرصون على التعبير عن تقديرهم لي حين أجتاز شوارع البلدة لأمرٍ ما. ويؤلمني أن لا أستطيع نقل رأيي إليهم في شأن البيت والحديقتين وسوى ذلك من مسائل تثير تساؤلهم. فماذا تراني أقول لهم؟ هل أقول إن كلّ هذه الأبنية التي أجهدوا أنفسهم في تشييدها منذ ربع قرن، هي في نظري خراب بخراب؟ وإن شجرة سنديان أو صنوبر واحدة هي في عرفي أهمّ بما لا يُقاس من بناء شاهق؟ هل أحدّثهم عن مدى غبطتي وتأثّري، لأن حديقتيَّ أصبحتا ملجأ الطيور الأخير، وكم أشعر عميقًا بها ليس فقط وأنا أصغي إلى تغريدها الحي وهي تستقبل النهار وتودّعه، بل أيضًا وخصوصًا حين تكون راقدةً على الأغصان في ظلمة الليل، تحت السماء المرصّعة بالنجوم، أو في مهبّ الأمطار والعواصف، وأني لم أعد أتخيّل حياتي من دونها؟ وقبل ذلك

كلّه، كيف تراني أنقل الى الآخرين شعوري بأن هذا البيت ليس لي وحدي، بل هو ملك كلّ الذين عاشوا فيه من أهلي على مرّ الزمان، وبأن تعلّقهم به وبحديقتيه لا يزال موجودًا وإن فارقوا الحياة؟ فمن قال إن المشاعر تزول مع أصحابها؟

لا يمكن أن يأتي أحدٌ لزيارتي في هذا الوقت المتأخر، لذلك لم أتبيّن للوهلة الأولى وقع الخطى على الدرج الخارجي في الليل العاصف. كنت جالسًا قبالة النافذة التي أضحت مسرحًا شاسعًا للبروق والرعود، وكنت غارقًا، مثل كلّ ليلة، في هذا السيل من الأحاسيس والصور والأفكار الذي يفيض في نفسي حين يعمّ السكون والظلمة ويحلّ الرقاد على الكائنات، وأبقى أنا المستيقظ الوحيد. خصوصًا عندما تهبّ الرياح ويهطل المطر، فأغوص أكثر في داخلي ولا أعود أشعر بما يحدث حولي. لم أدرك وقع الخطى إلّا حين اقتربتْ واشتدّتْ، تلاها طرقٌ على الباب أفاقني فجأةً من غفلتي.

في اللحظات التي سبقت ذلك، كنت أستعيد مشاهداتي وأنا أتنزّه قبل يوم على شاطئ النخلتين. فما إن هدأ المطر قليلًا حينذاك وحلّ بعض الصحو، حتى قصدتُ الشاطئ. لم يكن من متنزِّه سوايَ. أعجبُ من الناس في المدينة البحرية كيف يختفي كلّ أثرٍ لهم على طول الشاطئ، ما إن تنطلق

الريح ولو خفيفة. كان هناك هذه المرّة شخصٌ واحد هو بائع الفستق الذي التقيته واقفًا وراء عربته، مُشعِلًا مدخنتها في انتظار لا أدري أيّ مارّة. رجلٌ كهل، نحيل القدّ، أسمر البشرة، مُديرًا ظهره إلى البحر أمام المرفأ الصغير. قلت في قرارتي: كم هذا الشخص بعيد عني، وكم الهوّة عميقة بين عالمه القائم على عربته وفستقها ومدخنتها وانتظاره مرور عابري السبيل، وعالمي الموصول بهواجس البحر وأسرار العاصفة واشتعال الأفق، في ما يشبه الاحتفال الكوني في داخلي وأنا أسير وحيدًا على هذا الشاطئ. لكني ما إن ابتعدتُ قليلًا عنه حتى ارتفعتْ فجأةً من مذياعه أغنية «ليه يا بنفسج؟»، التي بدا أنه يحبّها كثيرًا ويصغي إليها بتأثّر، والتي أحبّها أنا أيضًا، وقد ملأت أنحاء المكان. شعرتُ كم أصابت الأغنية في تلك اللحظة نفسي، كما أصابت نفسه، وكم وحّدت بيننا. فكيف يكون بائع الفستق غريبًا عني إذا كنا كلانا نحبّ هذه الأغنية؟

ثم انتقلتُ في تفكيري الليلي إلى الوقت الذي بدأ المطر ينهمر فيه على الشاطئ، حين هرعتُ إلى مقهى «الشراع الأبيض» الذي كان خاليًا من الروّاد، وجلستُ في مكاني المعتاد قبالة البحر. كان المطر يهطل غزيرًا على بلّور النوافذ الفسيحة والريح تلوي بشدة رؤوس الأشجار. حينئذٍ تذكّرتُ آنّا، وانتابني سرّ فراقها. تساءلتُ: كيف يصبح الفراق ممكنًا،

وكيف نقبل به؟ كيف لا أعرف شيئًا عن آنّا، ولا تعرف عني شيئًا كلّ هذا الزمن؟ كيف أعيش في عالم - وهذا المشهد البحري جزءٌ منه - لا علاقة له ولناسه بعالمها، وتعيش هي في أمكنةٍ لا أدركها، ومع بشرٍ أجهل مَن هم؟ كيف يمكن ذلك؟ هي، هذا الكائن الذي اندمج عميقًا في جسدي وروحي، واندمجتُ عميقًا في جسده وروحه، كلّ تلك السنين. شعرتُ أن قبول الفراق، هو المقدّمة الكبيرة، غير المُدرَكة، غير المرئية، لقبول الموت. ذاك الذي أمضى ردحًا من عمره في بيت صباه، في ذلك الحي، في تلك الطريق الأليفة المُظَللة، والذي يمرّ اليوم بهذه الأنحاء من دون أن يلتفت إليها، كأنّها لم تكن. وتلك التي لم ترَ أختها ولم تكلّمها منذ عشر سنين، وهي تعيش في مدينةٍ أخرى لا تبعد عنها أكثر من مئتي ميل، مع أن لا أخت ولا أخًا ولا أقارب لها سواها، ومع أنها لم تختلف يومًا معها. عندما حلّ ذاك المصاب وأضحتْ وحيدة، حاولنا وصلها بأحد أترابها، فلم يكن لها في الدنيا إلا تلك الأخت التي تحدّثتْ للمرة الأولى معها وهي لا تعرف عنها شيئًا. حالات كثيرة أخرى أشدّ وقعًا وقسوةً. إنه الفراق الرهيب، البسيط، العادي، اليومي، بلا ألم، ولا تمزّق، ولا توقّع، ولا انتظار. ليس الفراق المأسوي، المعذِّب، البشري، النبيل، بل فراق اللامبالاة، الذي فيه ما فيه من الرضوخ

والنسيان الحيوانيين، اللذين تأباهما الروح. الفراق الممهِّد للموت.

ثم تذكّرتُ كيف بعد حين، دخل المقهى رجلٌ وامرأة لم يكونا في مقتبل العمر، بلّلهما المطر، وقد أمسكا الواحد بيد الآخر بخفر. جلسا هما أيضًا قبالة البحر، يدًا في يد. قلت لنفسي إن الفرق العميق بيني وبين فؤاد، الذي زارني ذلك اليوم، أني حين أنظر إلى هذين الرجل والمرأة، أفترض حكمًا، وبصورة بديهية ولاشعورية، أن علاقتهما وثيقة، عميقة، متينة في وجه كلّ ما هو سواهما. أما هو، فينظر إليهما وهو يفترض على نحوٍ بديهي وتلقائي ولاشعوري أيضًا، أن هذه اليد في اليد مشوبة باحتمالات التفسّخ، وربما الغموض، وربما الرياء، وبالتوجّه شبه المؤكّد نحو الانفصال. هذا ما فرّق أحدنا عن الآخر على الدوام، وما لم أكن أعيه من قبل. إن نظرتي ونظرة فؤاد إلى هاتين اليدين المتشابكتين، المبلّلتين بالمطر في المقهى البحري، تفسرّان وتختصران كلّ تباينات شخصينا وحياتينا.

تمامًا قبيل سماعي الطرق على الباب، أخذني تفكيري إلى الكتاب الذي يراودني منذ مدة، وهو يدور حول شخصية أسمّيها «سيّد الروح»، تنعكس على نفسه، أكثر من أيّ نفسٍ

أخرى، انهيارات التاريخ ومآزقه، وهواجس المرحلة وآفاقها، حيث تلتقي ذاته المدركة، المتألمة، بالذات الجماعية وتصبح مرآتها الوحيدة.

اشتدّ الطرق على الباب، الذي بدأ خافتًا، عميقًا، وسط أصوات العاصفة، ثم ارتفع وتسارع بتصميمٍ وإلحاح كبيرين. نهضتُ من مكاني سائلًا: «من الطارق؟». أجابني صوتٌ أجهله: «رجال الأمن». فتحتُ الباب، ووجدتُني أمام ثلاثة رجال ألقوا عليَّ التحية وقال لي مَن يتوسّطهم: «قائد المنطقة يريد لقاءك». كان شيئًا طاغيًا كالقَدَر استسلمتُ له كمَن يرمي بنفسه في نهرٍ مظلم.

- ٤ -

مرّ عليَّ أسبوعان قبل أن أعلم أين أنا، كانا هما الأصعب منذ توقيفي. عند وصولي ليلًا معصوب العينين، أبلغني آمر السجن أني لن أوضع في زنزانة بل في إحدى الغرف، في انتظار أن يتمّ استجوابي ويتقرّر مصيري. أدركتُ بعد ذلك أني معتقل في «حصن الميناء»، فارتاحت نفسي قليلًا إلى المكان الذي لم أكن أتخيّله سجنًا قطّ. في كلّ مرّة كنت أتنزّه فيها على شاطئ النخلتين، كنت أرنو من بعيد إلى «حصن الميناء» القائم على طرفه الشمالي. إضافة إلى المشاهد الطبيعية، لا سيما البحر وخلجانه وجزره وطيوره وأشجاره، كان هذا الحصن من المعالم البشرية النادرة التي يتّجه إليها نظري في هذه الأنحاء. إنه الرابط الوحيد مع الماضي الأقدم، إذ بناه

المماليك قبل نحو سبعمئة عام من ضمن سبعة أبراج على طول الشاطئ، لردّ هجمات الصليبيين بعد هزيمتهم وتراجعهم إلى جزيرتي قبرص ورودس، وقد اندثرت كلّها على مرّ الزمن ما عداه.

يغلب عليّ الظنّ أن غرفة اعتقالي كانت مركزًا لمراقبة البحر. ليست هي فسيحة ولا ضيّقة، سقفها على شيء من الارتفاع، في أعلاها كوّتان مستديرتان يتعذّر الوصول إليهما من دون سلّم، ويتألف أثاثها من سرير حديدي منخفض وطاولة وكرسيّ خشبيين وخزانة صغيرة. لا يضايقني شيءٌ في ذلك، فأنا لا أحبّ كثرة الأثاث وأفضّل الأمكنة شبه الخالية منه. لكن ما يعذّبني في هذة الغرفة أمران: خلوّها من النوافذ أوّلًا، وهذا ما لا طاقة لي على تحمّله إذ يصيبني بما يشبه الاختناق. فطالما اخترتُ أماكن سكني وفقًا لنوافذها وما يرتسم فيها، قبل كلّ اعتبار. ثم إن جدران الغرفة العارية، الباهتة، التي فقدت ألوانها من زمان، لم تكن لتزعجني هي أيضًا، لولا صورة الطاغية المعلّقة على الجدار قبالة سريري، وهو ينظر اليَّ طوال الوقت بلا انقطاع. يبدو في هذه الصورة التي كُتب تحتها «بطل بلاد دجلة والفرات والعاصي وقائدها المُلهم» في الخمسينات من عمره، مرتديًا بزّته العسكرية، أي قبل نحو ثلاثين عامًا، حين وصل إلى الحكم إثر المقتلة

الشهيرة التي سفك فيها دماء صفوة رفاقه، وقد ارتسم على شفتيه، لا أدري لماذا، ما يشبه الابتسامة. رغم دخول الطاغية عامه الثمانين، فهذه الصورة، بحجمٍ ضخم، هي نفسها على الأرجح التي تستقبل المسافرين في مطارات بلاده، وقد وصفها لي مرارًا الذين مرّوا من هناك. ومجرّد وجودها في هذا السجن، يدلّ على مدى توغّل شبح الاستبداد داخل أرضنا، ومدى استخفافه بسلطة حكّامها. ومثلما تهمّني النوافذ وما تطلّ عليه، فإن لديَّ رغمًا مني، حساسية مفرطة إزاء الأشياء المحيطة بي في الداخل، خصوصًا الصور. إلى حدّ أنه يصعب عليَّ النوم في غرفٍ لا أرتاح للّوحات التي تزيّنها. وكم كانت آنّا تهزأ بي بتحبّب حين كنا نرتاد خلال رحلاتنا الفنادق، في المدن التاريخية أو على ضفاف البحر، وأقوم أحيانًا قبل النوم بإنزال اللوحات عن الجدران وإخفائها في الخزانة، ثم إعادتها إلى أماكنها في اليوم التالي. فكيف لي الرقاد في هذه الغرفة المحكمة الغلق، الخالية من النوافذ، مع صورة الطاغية المحدّق فيَّ، التي لا أجرؤ على نزعها.

إن غياب النوافذ وصورة الطاغية، وأبعد من ذلك، جهلي سبب اعتقالي وقلقي البالغ على مصيري، تخلق في داخلي اضطرابًا عميقًا أجهد نفسي في إخفائه. ولولا قدرتي على الصمت وعلى العزلة، وما تحمله إليَّ زيارة أمّي ورانيا كلّ

أسبوع من عزاء، إضافةً إلى صوت البحر ومطره ورياحه، لأُصبتُ بالجنون.

إن علاقتي بالكلام علاقة غريبة. فالقول المأثور: «ما ندِمتُ على صمتٍ قطّ»، لا ينطبق عليَّ في شيء. فالصمت هو القاعدة لديَّ والكلام الاستثناء. أكثر من ذلك، فطالما اعتقدتُ في مطلع صبايَ أنه يمكن إيصال المشاعر والرغبات كلّها إلى الآخر من طريق النظر لا غير، ومن دون الحاجة إلى قول كلمة واحدة. من أولى مفاجآت حياتي أني اكتشفتُ شيئًا فشيئًا، عبر تجارب مبكرة ومؤلمة، استحالة ذلك، وأنه لا بدّ من الكلام للتواصل. حينئذٍ بدأتْ مرحلة جديدة لديَّ هي مرحلة «ضرورة الكلام»، التي لم أتقبّلها في قرارتي يومًا، ولم أعتد عليها حقًّا. وحين اكتشفتُ في رحلتي إلى جبال السيقين دير «سيّدة الثلوج»، انجذبتُ إلى حبسائه لأنهم «حبساء الصمت». لكنني قلت في نفسي إن نذر الصمت، المعروف بقسوته، ليس نذرًا بالنسبة اليَّ لأنه لا يعذّبني في شيء ولا يحرمني من شيء، بل يريحني ويحقّق رغبتي. فأنا قادرٌ، من دون عناء، أن لا أنبس ببنت شفة طوال عامٍ، بل أعوام بأكملها. ويعرف ذلك المقرّبون مني.

ما يصحّ على الصمت لديَّ يصحّ على العزلة أيضًا التي

أتحمّلها بلا كبير مشقّة، بل بقبول وارتياح. وقد تساءلتُ عن سرّ ذلك، ومعظم الناس لا يستطيعون البقاء وحدهم ولو لوقت وجيز، والسجن الانفرادي الذي أعيشه منذ اعتقالي لا بدّ أن يُفقدهم صوابهم. لكن كلمة «عزلة» لا تتوافق في الحقيقة مع حالتي. فحين أكون وحيدًا لا أكون معزولًا، ولو لدقيقة واحدة. أبعد من ذلك، إنّي من الكائنات المحكومة بعدم العزلة إلى الأبد، وهي مهما فعلتْ، لا تستطيع تخطي هذه الحالة. ولإيضاح ما أقصد، سأورد بعض ما جاء في مفكّرتي الصيف الماضي: «يوم أمس، على الغداء مع إحسان، ذكرتُ مدى وحدتي التي اخترتُها لنفسي داخل هذا المجتمع، داخل هذه المدينة. لكني في الواقع لست في وحدة أو عزلة قطّ. الذين يحيطون بي هم فقط مختلفون. أن يكونوا مرئيين وملموسين، أو غير مرئيين وغير ملموسين، هو الفارق الوحيد. أنا في عزلة عن المرئيين والملموسين لا أكثر. لكني محاط في كلّ لحظة بحضورٍ أقوى وأعمق. كلّ هذه الهامات، والوجوه، والأجساد، والأمكنة، والأحداث، والظلال، والمشاعر، والأشياء الأخرى التي يصعب تحديدها، التي تحيط بي في كلّ آن، في اليقظة كما في الرقاد». كما جاء في مقطع آخر: «الشعور في الاحتفال الغنائي الحاشد أمام غابة الشربين، بأنكَ حيث تجلس، تنزاح

بعيدًا عنكَ الحيوات الحاضرة، وتلتفّ حولكَ ظلالٌ وإشارات آتية من أمكنة نائية وأشياء كثيرة أخرى تفصلكَ وتقصيكَ وسط هذا الجمع. تُرى لماذا، في الوحدة، كما داخل الحشود، يحدث هذا اللقاء السحري؟ هل كلّ هذه الأشياء، هي التي تأتي إليك من أماكن وجودها البعيدة، الخفية، إلى النقطة التي أنتَ فيها؟ أم أنتَ مَن يذهب إليها حيث تكون؟ إنه، في كلّ حال، الأمر نفسه».

يهبط المساء على «حصن الميناء» وتغشى الظلمة الكوّتين المستديرتين. إنه ليلٌ آخر يحلّ عليَّ في سجني لا بدّ لي من اجتيازه. أرزح تحت وطأة فقداني حرّيتي، وجهلي المستمرّ لسبب اعتقالي وغموض مصيري، إضافة إلى اختناقي في هذه الغرفة المقفلة، العديمة النوافذ، حيث صورة الطاغية المثبت نظره عليَّ بلا كلل. وأستمدّ قوتي من حياتي الداخلية ومن قدرتي على الصمت، ومن هذه العزلة التي هي عزلتي، حيث يحيط بي ويحرسني أشخاصٌ غير مرئيين يخترقون جدران «حصن الميناء» السميكة وهم أكثر حياةً من كلّ الذين يحيون، أجدادي الذين عرفتُهم طفلًا، وأهلي ورفاق صبايَ الأوّل، وأحبّة هجرتي الطويلة، والذين ماتوا صغارًا، والذين سافروا ولم يعودوا، والذين حوصروا في السهول الوسطى في أغاني والدتي الحزينة ورفضوا الاستسلام حتى الرمق الأخير.

# - ٥ -

اليوم الجمعة، حضرت أمّي كالمعتاد لزيارتي. فضلًا عن توقي ليومَي الأربعاء والجمعة، حيث تأتي رانيا ثم أمّي لرؤيتي، أحبّ هذين اليومين لأني أغادر فيهما غرفتي إلى قاعة أخرى لها نافذة كبيرة. هنا، طوال المقابلة التي تدوم في العادة نصف ساعة، أسترق النظر إلى المشهد الخارجي الذي يضمّ شجرة نخيل وراءها بعض سطوح المدينة، يمتدّ فوقها في الأفق البعيد، جهة الشرق، جبل المكمل. كان الطقس اليوم عاصفًا والبروق والرعود تملأ المدى وقد ارتفعت الأمواج واشتدّ هديرها حول الحصن منذ الفجر. لكن ذلك لم يمنع والدتي من الحضور، فأشاعت كما في كلّ مرة لدى الحرس وفي المكان جوًّا من الرهبة والسكينة، سرعان ما

تبدّد بعد رحيلها. ها هي تتقدّم في القاعة ببطء، بقامتها المتوسّطة القدّ، المستقيمة، التي لم تنل منها أعوامها الثمانون، وبلباسها الأسود أو الرمادي الداكن، وهي لم تتخلَّ عن هذين اللونين منذ رحيل والدي قبل اثنين وثلاثين عامًا. ولا بدّ أن الحرس ينتبهون أنها حين تجلس قبالتي حول الطاولة الخشبية، هي لا تسلّم عليَّ ولا تغمرني بذراعيها أو تقبّلني، كما أنها طوال المقابلة لا تضع يديها بين يديَّ قطّ. وقد اعتدنا، إخوتي وأنا، منذ مستهلّ وعينا، أن نشعر بعطف والدينا العميق وباهتمامهما الدائم بنا، من دون أن يلجآ يومًا إلى التعبير. باحت لي أمّي قبل سنوات قليلة أنهما كانا يقبّلاننا أثناء نومنا فقط. كما أذكر أني شاهدتُ مرةً دمعةً على خدّ والدي حين أخذني إلى الطبيب محمومًا وأنا طفل. لا شكّ في أن الناظر إلينا يلاحظ كيف أن لقائي بأمّي خالٍ من الانفعال ومختصر الكلام. فهي بصوتها الهادئ، الواضح والواثق - الذي تخال صاحبته في الثلاثين من العمر إن كلّمتها على الهاتف - تنقل إليَّ أهمّ ما يحدث في غيابي، وتعرض لي أخبار العائلة، وتذكر باقتضاب الذين حضروا أو اتصلوا ليسألوا عني، والمقالات الصحافية المستفسرة بحَيرةٍ بين حين وآخر عن أسباب اعتقالي، وقد وقّع العديد من الأدباء. والمثقّفين عرائض تستنكر توقيفي

وتطالب بإطلاق سراحي. لكن ذلك كلّه لم يلقَ ردًّا من أحد ولم يصل إلى نتيجة.

يبعث فيَّ حضور أمّي ارتياحًا عميقًا. فهي في كلّ مرّة، توصل إليَّ في كلامها، كما في صمتها أيضًا، رسالةً بوجوب التسلّح بالصبر وسعة العقل وقوّة الروح لمواجهة هذه الغيمة السوداء التي لن تلبث أن تمرّ وتضحي مجرّد ذكرى. أعجب من هذه المرأة التي تقوى دومًا على مصاعب الحياة مهما اشتدّت، والتي تقول إن الأمر الوحيد الذي تخشاه في هذه الدنيا هو أن يموت أحد أولادها قبلها. لقد عرفتْ هذا المصاب مرّةً واحدة قبل ثلاثة وستين عامًا، حين توفّي ابنها البكر عن ستة أشهر، وهي في الحادية والعشرين من العمر. ومع أن الناس في مجتمعنا كانوا معتادين في حينه على كثرة موت الأطفال في وقت لم تكن وصلت إليهم اللقاحات والمضادّات الحيوية، وفي زمنٍ كان يبقى حيًّا من الأولاد نصفهم فقط أو أقلّ، وأمّي، على سبيل المثال، هي الناجية الوحيدة من بين ستّ أخوات، فقد هزّتها وفاة ابنها على نحوٍ غير معهود وأحدثت لها اضطرابًا خطيرًا وضعها على طريق الموت هي أيضًا. لم تعد تطيق بيتها الذي غادرته إلى بيت أهلها، ولم تعد تتناول الطعام، وبقيت على هذه الحال أشهرًا عدة حتى أصيبت بهزالٍ شديد، رافقه منذ البداية الاكتئاب،

ولم يكن مَن يُدرِك التعامل مع حالتها. وهي تحدّثت إليَّ عن خفايا ما جرى لها آنذاك للمرّة الأولى بعد نحو أربعين عامًا على وفاة أخي. قالت إن الاضطراب بدأ بعد الولادة حين هيمن عليها هاجس الموت، وباتت أسيرة التساؤل التالي الذي لم يعد يفارقها: «كيف يمكن أن يموت ذات يوم هذا الطفل الجميل الذي هو طفلي؟». تحت وطأة الخوف جفَّ حليبها وصار الطفل يتغذّى بأنواع حليب أخرى، فأصيب بعد أشهر بداء في الأمعاء أودى سريعًا بحياته، في زمنٍ كان الطبّ عاجزًا عن مواجهة معظم الأمراض، «وكان موسم الحصبة يقضي دفعةً واحدة على نصف أولاد الحي»، على حدّ تعبيرها. ليعزّوا أنفسهم، كان الناس يقولون «إن الذين يموتون أطفالًا هم خير معين لآبائهم في السماء». وقد خلق لديها فقدانها طفلها عقدة ذنب هائلة كادت أن تودي بها.

كلما فكّرتُ كيف هذه المرأة خرجت من الهوّة التي وقعتْ فيها مطلع صباها، لتواجه الحياة بعد ذلك طوال ستين عامًا بقوةٍ هادئة، فاعلة، مستمرّة حتى اليوم، من دون أدنى تعثّر، شعرتُ أني مُطالَبٌ من الأعماق، بتخطي الوضع الذي أنا فيه، وعدم الغرق في مياه غموضه الآسنة. فكيف لي المقارنة بين محنتي ومصاعب حياتها؟ لقد ربّت، هي وزوجها عائلة كبيرة، أوصلا كلّ.أفرادها إلى أرفع المراتب العلمية، في

محيطٍ مهتزّ وفي زمنٍ تسوده الفوضى والعنف. ثم فقدت زوجها وهي في الثانية والخمسين، وذهب أولادها لبناء حياتهم، كلٌّ في سبيله، بمَن فيهم أنا الذي سلكتُ طريق السفر بحثًا عن العلم والاكتشاف فطال غيابي، وبقيتْ وحدها، أمينةً بصورة مطلقة لذكرى زوجها وشرف بيتها، وقد أضحت في ذلك مضربًا للمثل. على مدى عمرها، خصوصًا طوال النصف قرن الأخير، شهدت سقوط حوالى مئتين وخمسين قتيلًا في بلدتنا، الواحد تلو الآخر، في النزاعات الداخلية أو مع الجماعات المجاورة، وهي تعرف كلّ الذين قُتِلوا فردًا فردًا، وتحفظ في نفسها عميقًا مأساة كلٍّ منهم. وقد تمتّعت على الدوام بروح الرأفة، والعدل، وضبط النفس، بحيث لم أرَها ولا مرّة في حالة غضب ظاهر، ولم أسمع صوتها مرتفعًا قطّ.

وإذ يتعذّر عليّ النوم في هذه الغرفة الخانقة، في هذه الساعة المتأخّرة من الليل، أودّ أن أنير سهادي بالتفكير في شخصها ورسم بعض ملامحها. وانا أفعل ذلك أيضًا لأني أجهل ما سيحمله لي الغد في سجني، ولا أدري إذا كان سيتوافر لي بعد اليوم إمكان الكتابة، ويقلقني أن تندثر صورتها في بحر النسيان. فهذه المرأة المسنّة التي تحمل كلّ أسبوع أعوامها الثمانين لزيارتي في «حصن الميناء»، كانت إحدى أجمل نساء عصرها، بقدّها الأهيف، وبشرتها البالغة النقاوة،

الناصعة البياض، ووجهها اللطيف القسمات، المرهف الانسجام، الذي زاده تألّقًا شعرٌ كستنائي فاتح، وعينان لوزيّتان مضاءتان بنورٍ داخلي، بحيث تبدو في صورها الفوتوغرافية القليلة وهي في العشرينات من العمر، كإحدى عذارى رسم النهضة. ويصف «شحرور الوادي» جمالها في أبياتٍ له حين نزل في بلدتنا الصيفية ورآها تمرّ في ساحة الكتلة وهي في ربيعها الثامن عشر. هذه الناجية الوحيدة من بين ستّ أخوات، كانت لها على الدوام صحة الجسد، وتوهّج الروح، ورهافة الإحساس، ودقّة الملاحظة، وقوّة الذاكرة، فضلًا عن موهبة الرواية والكتابة، وجمال الصوت وملكة الغناء. فلديها مخطوطات عدة بلغةٍ ما بين المحكية والفصحى، ضمّنتها ذكرياتها ووقائع مجتمعها وتقاليده، ومجموعة كبرى من الأمثال، فضلًا عن أشعارٍ من نظمها. في معزلٍ عن هذه المخطوطات، تشكّل هذه المرأة اليوم الحافظة الأخيرة الحيّة لذاكرة مجتمعها، منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى الآن، بشمول ودقّة عجيبين، وقد نقلت إلينا الكثير من كنزها. ولم تكن تُجاريها في ذلك إلّا صديقتها ونسيبتها الستّ أنجيل، التي تشاركها صفات عديدة، والتي توفّيت قبل عقدٍ من الزمن عن عمرٍ تجاوز التسعين. لا شكّ في أن والدتي كان مُقدَّرًا لها أن تكون إحدى أديبات عصرها

البارزات لو أكملت دروسها وتوافرت لها البيئة الملائمة. لكن والدها، على رغم استقامته ورجاحة عقله، أخرجها من المدرسة عنوةً في العاشرة من عمرها، حين ملكت القراءة والكتابة، لأسبابٍ ماديّة ربما، أو ربما لاعتقاده، مثل معظم أبناء جيله، أن لا حاجة لتعليم الفتيات أكثر من «فكّ الحرف». ولم ينفع بكاؤها ولا توسّل الراهبات اللعازاريات إليه في ثنيه عن قراره. وهي تحفظ حتى الآن كلّ ما تعلّمته في المدرسة، بما فيه الأغاني والتراتيل العربية واللاتينية التي كانت تنشدها وهي ترافق الأخت الرئيسة على البيانو. إن موهبتها الأدبية أمرٌ ظاهرٌ للعيان، إذ يكفي سماعها وهي تتحدّث، خصوصًا حين تروي، ليدرك المرء أن كلامها أدبٌ خالص يعبّر بعفوية عن لغة روحها، ويكفي تدوينه من دون تعديل ليضحي أدبًا مكتوبًا. من أهمّ مؤشّرات هذه الموهبة، وهي عديدة، علاقتها الوثيقة بطفولتها، وهي علامة لا تُخطئ. وأنا سمعتُ مرّةً أديبًا شهيرًا يقول إن كتابته لا علاقة لها بطفولته، فكيف يكون ذلك؟ إنها تستعيد في صورةٍ حيّة أمورًا حدثت لها قبل أكثر من سبعين عامًا، بدقّة تفاصيلها وألوانها ومشاعرها وأوصاف أشخاصها وأمكنتها، كأنها حصلت يوم أمس. ومثلما ربينا على أحاديثها التي نقلت إلينا ذاكرة شعبنا وظلال أرضنا، ربينا أيضًا على أغانيها التي غالبًا ما كانت تؤدّيها وهي تقوم بأعمال

البيت، بصوتٍ شجي، دافئ، مؤثر، طالع من أعماق الروح، وقد حفظتْ، خصوصًا عن والدتها، كلّ ما تجمّع في تراثنا من غناء. قلت لها ذات مرّة: «تعرفين يا أمّي، أنتِ عشتِ مصيرًا غير مصيركِ الحقيقي. لو تركَكِ جدّي تكملين علومكِ لوصلتِ، بما لكِ من فطرة أدبية ومن صوت وموهبة غنائية، إلى فضاءات شاسعة، ولأصبحتِ أديبة كبيرة، أو مطربة ساطعة النجم، أو الاثنتين معًا. لا شكّ لديَّ في هذا الأمر». أجابتني: «أنا غير آسفة على ذلك. لقد فعلتُ ما هو أهمّ وأفضل، ربّيتُ عائلة. كان معي في الصفّ، حين تركتُ المدرسة، أختان صغيرتان، هند وحسنا، تنافسانني على المرتبة الأولى. أوقف والدي دراستي، أما والدهما فباع أرضه لتكملا دراستهما. قال عنه الناس آنذاك، إن فلانًا جنَّ، فهو يبيع أرضه ليعلّم البنات. أصبحتْ حسنا أول طبيبة في مجتمعنا، وهند أول محامية وقد تبوأت عن جدارة أحد المناصب الرفيعة، وكانتا مثال النزاهة. لكنهما تزوّجتا في عمر متأخر، بعد سنّ الخمسين، فلم تُنجبا ولم تربّيا عائلة. وكم يسرّني أن أتذكّر كيف كنت أمضي تسعة أشهر، من نزولنا إلى الساحل حتى طلوعنا إلى الجبل، من دون أن أزور أحدًا، منصرفةً كليًّا لشؤون أسرتي. وكيف كنت أُدخلكم المدرسة في عمر ستّ أو سبع سنوات، وليس قبل ذلك، بعد أن أعلّمكم القراءة وكتابة الأحرف في دفء البيت،

كي أجنّبكم وأنتم صغار، صقيع الخارج. وكم انتقلنا بكم، والدكَ وأنا، من منطقة إلى أخرى في هذه البلاد، كلّما اشتدّ العنف في محيطنا، كي نؤمّن لكم جوًّا ملائمًا لصفاء النفس وحب المعرفة».

## - ٦ -

إنها ليلةٌ بيضاء لم أعرف فيها النوم. كان البرق يُضيء بومضه الخاطف بلا توقّف الكوّتَين المستديرتَين، ثمّ تملأهما الظلمة من جديد. توالٍ سريع للضوء والعتمة في الغرفة طوال الليل، يظهر معه الطاغية ثمّ يختفي بلا كلل، وعيناه لا تبارحانني، بينما يهدر البحر هدرًا على وقع الرعود وصفير الرياح وانهمار المطر الشديد. لم يكن جموح الطبيعة سبب يقظتي، بل على عكس ذلك، كانت العاصفة تؤنس سهادي، كما في كلّ مرّة، وتُشعرني بقوّة أني حيّ، وتوصلني بعوالم قصيّة لا يعود سجني معها في بعض الأوقات أمرًا ذا شأن. لا أدري لماذا ظهور الطاغية واختفاؤه مع حركة البرق المتسارعة، أتاحا لي فهم ابتسامته الغامضة أكثر من قبل،

ودفعاني لسبر أغواره. لكني لم أستمرّ طويلًا في ذلك، إذ غلبتني غفوةٌ قصيرة عند طلوع النهار استيقظتُ بعدها بهلعٍ من منامات غريبة.

منذ دخولي «حصن الميناء»، يراودني حلم لا أدرك كنهه، يتكرّر بأشكالٍ مختلفة في حياتي الليلية، بحيث أشعر بفعل تواليه كأنه من عالم اليقظة. لقد عاودني هذه المرّة أيضًا. وجدتُ نفسي أمام علبةٍ مغلقة داكنة اللون، تحوي شريطًا سينمائيًّا أحيانًا، وأحيانًا كتابًا، أعلم أنه إذا اطّلع الإنسان عليهما، لا بد أن يقوده ذلك لا محالة إلى الانتحار. أعرفُ في الحلم أن الأمر لا يحدث فجأةً بل على مراحل، فيُصاب المرء بالاكتئاب، ثم يرى أشياء غير موجودة، ويقوى اضطرابه أكثر فأكثر، وتختلّ علاقته بذاته وبمحيطه، وصولًا إلى لحظة الانتحار. لذلك، يمتلكني في المنام قلقٌ شديد من أن تقع العلبة في يد أحد، فأجهد نفسي لإخفائها في أمكنةٍ لا يطالها نظر. لكن، في الوقت نفسه، تأخذني رغبةٌ لا تُقاوَم في فتحها وكشف ما فيها. هكذا، بدأتْ تظهر على الحائط مشاهد مهتزّة من الشريط يرافقها صوتٌ يتحدّث همسًا. كان هناك ما يشبه الملاكَين الصامتَين الواقفَين وجهًا لوجه وهما معصوبا الأعين. ثم بانت امرأة بدتْ كدائرةٍ منقسمة على ذاتها قسمَين، نصفًا سفليًا، ونصفًا أعلى. في النصف الأعلى، الواضح، المرئي،

يتحرّك قدر هائل من الأحداث والحالات. وفي النصف السفلي، شبه الخالي، شبه المظلم، أمر واحد، أو أمران، يواجه أحدهما الآخر بثبات. كان الصوت يهمس أنهما وعي الموت من جهة، الذي يمثّله ملاك اليمين، والعجز عن الانتصار عليه من جهة أخرى، الذي يمثّله ملاك اليسار. كانت تلك مقدّمة الشريط. وقبل أن تتوالى أحداثه التي لا بدّ أن تكون رهيبة، اشتدّتْ خشيتي منه، كما في كل مرّة، فاستيقظتُ. لكني عدتُ بعد حين إلى الرقاد، فدهمني حلمٌ آخر.

دخلتْ عليَّ فتاةٌ أعرفها من زمن الصبا الأول، حين كنت أسكن «الحي القديم» قبل ثلاثين عامًا. كانت هذه الفتاة، التي بقيت عزباء، لافتة على الدوام بخفرها وسرّها وأنا لم أكلّمها قطّ من قبل، ولا أفكّر فيها الّا حين ألمحها مصادفةً على الطريق كلّ خمس أو عشر سنين، فأقول لنفسي في كلّ مرّة «كم تغيّرت سارة وكم كبرت في السنّ». لكن العمر لم يكن باديًا إلّا على وجهها فقط، إذ بقيت نحيلة القامة، ممشوقة القدّ، رشيقة الحركة. كنت أعلم في الحلم أنّي مسجون، وتساءلتُ باستغراب كيف استطاعت هذه المرأة الدخول إلى هنا وماذا تريد. فهي اكتفتْ بالنظر إليَّ عن بعد ولم تكلّمني. لكن حين بدأتْ تتقدّم نحوي ببطء وحذر، بردائها الأسود، ووجهها المغلق الخالي من التعبير، وهي تخفي يدها اليمنى

وراء ظهرها، أدركتُ أنها جاءت لتقتلني. قلتُ همسًا: «أرسلوها لقتلي». من الغريب، كنتُ كأني أتفهّمها، وبقيتُ في مكاني لا أحاول صدّها. وحين اقتربتْ أكثر، قلتُ هذا هو وجهها، وهذه هي نظرتها، ولا شكّ في أنها هي. فجأةً بانت لي حقيقة أمرها، وذُهِلتُ كيف أني لم أدرِ بذلك من قبل. فهذه المرأة تُحبّني، وهي أحبّتني طوال هذه السنين، طوال هذه الأعوام الثلاثين، من دون أن تُفصح عن شعورها قطّ. ولا بدّ أنها تألّمتْ كثيرًا في وحدتها، ولم تغفر لي كيف خرجتُ من قفص «الحيّ القديم» ولم أعد، ولم أحسّ لحظةً واحدة بوجودها، بينما بقيتْ هي تدور في الحيّ على نفسها إلى الأبد، وأنا مقيمٌ في كلّ لحظات حياتها. لكن وجهها ونظرتها وحركة جسدها وهي تتّجه نحوي، كانت توحي أيضًا بأمورٍ أخرى تتخطّى شخصها. كانت كأنها تقول لي: «تذكر كلّ الذين قُتِلوا وهم شبّانٌ من أبناء الحارة، فشاهدنا أنا وأنتَ وكلّ الأهالي أجسادهم المسجّاة، المثقوبة بالرصاص، وسمعنا نحيب أمهاتهم في تلك الليالي الرهيبة، وهم لم يعرفوا من الدنيا إلّا هذا الحيّ وهذه البلدة. تُرى كيف تجاوزتَ أنتَ موتهم، وذهبتَ لاكتشاف بلدان ما وراء البحار وناسها، فجبتَ كلّ تلك المدن والحدائق وضفاف الأنهر والبحيرات والجسور والخلجان والشواطئ، وعشتَ وأحببتَ وسُعِدتَ وتألّمتَ،

وذلك كلّه لم يعرف الشبان المقتولون منه شيئًا؟ أما أنا فبقيتُ هنا، ورفضتُ التعرّف إلى ما لا يعرفون». اقتربتْ سارة مني أكثر فأكثر وشهرتْ في لحظةٍ ما الخنجر المسنون المخفي وراء ظهرها. حاولتُ الاستغاثة، لكنّ صوتي بقي مخنوقًا، وصرختُ بها: «لا، لا تفعلي!»، لكنّ كلماتي ظلّت في داخلي. أمسكتْ سارة بخنجرها وهوتْ به بكلّ قواها على صدري، فاستفقتُ مذعورًا، مقطوع الأنفاس، ويدايَ تشدّان على قلبي.

لا يزال «الحي القديم» يسكن أحلامي على رغم كلّ الزمن الذي مضى وكلّ ما عرفتُ من عوالم. ومع أنه بعد ذلك، سقط في البلدة عشرات القتلى، وفي البلاد التي أدمتها الحروب، مئة ألف قتيل، لا يزال قتلى «الحي القديم» هم الحاضرين الدائمين في نفسي، أحملهم معي حيث أكون، بينما أشعر كأن أهلهم وأبناءهم قد نسوهم. تُرى، قتلى الطفولة والصبا الأول، يبقون هكذا، أحياء لا يفنون؟

- ٧ -

اليوم الثلاثاء، يكون مرّ شهران على اعتقالي. ما زلت أدور في الدوّامة نفسها: لم يحقّق معي أحد، لم أعرف سبب سَجني، وطاغية الصورة مُثبِتٌ نظره عليَّ طوال ساعات النهار. أستغربُ العدد الوفير من الحرس الموجودين في «حصن الميناء». فأنا منذ وصولي لم ألحظ في هذا المكان سجينًا سوايَ. أعتقد أن الغرف الأخرى، والزنزانات السفلى، لا تؤوي أحدًا. لم أسمع يومًا أصواتًا أو ضجيجًا غير ما يصدر عن الحرس. ولم أرَ مرّةً أناسًا حضروا لزيارة ذويهم. كما لم يصل إلى مسمعي أيّ صدىً لصراخ التعذيب الذي اشتهرتْ به سجون الطاغية.

تُرى لماذا تمّ اعتقالي دون سوايَ من الأدباء والكتّاب في

هذه البلاد التي يتغلغل فيها أعمق فأعمق ظلّ الاستبداد، على رغم أني لا أمارس نشاطًا سياسيًّا، ولا أخوض قطّ في النقاشات الإعلامية، وكتابتي أبعد ما تكون عن الأدب الملتزم، وأكاد لا أعبّر عن حقيقة رأيي أمام أحد، وألتقي فقط نفرًا ضئيلًا من الأصدقاء الذين لا انتماء حزبيًا لهم، ينحصر اهتمامهم بالفنون والدفاع عن الطبيعة والتراث؟ كلما طالت إقامتي في هذا السجن واشتدّت حيرتي واضطرابي، ربطتُ اعتقالي، ليس بمشاعر وانطباعات فقط، بل بأسباب غريبة أيضًا. ففي غياب الوقائع تحضر الاحتمالات والتخيّلات، وليس سهلًا الاحتفاظ بوضوح الرؤية على الدوام في وضعٍ مثل وضعي. لقد امتلكتني اليوم فكرةٌ واحدة طوال الوقت. إن جهاز الطاغية اعتقلني لسببٍ واحد، هو أني من الكتّاب الأكثر بعدًا عن السياسة، ومن الأشخاص الذين لا يتصوّر أحدٌ احتمال التعرّض لهم أو الزجّ بهم في السجون. شيءٌ يشبهُ بعبثيته، وعشوائيته، إلقاء القبض على عازف الأرغن. فالغاية من سَجني هي الآتية: رغبة الطاغية صدم العقل، والإفادة من عبثية فعله لرمي الخوف والارتباك الكبيرين في قلب كلّ مَن يكتب وكلّ مَن يفكّر. كي يقول لهم ما معناه: ليس هناك مقياس ولا هناك منطق في التعامل، فكلّكم متّهمون، وكلّكم مهدَّدون بالاعتقال، أو لما هو أسوأ بكثير، بسبب أو من دون

سبب لا فرق، والأكثر براءةً بينكم مثله مثل الأكثر عرضةً للاتّهام. وكي يوصِل إليهم بعدها هذه الرسالة: لا أمان حقيقيًّا إلا لمن يسلّمنا روحه، فيضحي قلمًا من أقلامنا، وأداة طيّعة، عمياء، في أيدينا. وكلّ مَن هو غير ذلك مشبوه.

ثم أذهب أحيانًا في تخيّلي أبعد من ذلك، أو عكسه. فأنا بتّ أخشى أن يكون الطاغية قد رأى ما في داخلي، وأن يكون هذا هو سبب اعتقالي. هل رأى، أم أن أحدًا وشى بي؟ إذا كانت وشاية فالأمر بسيط وممكن الحدوث، أما إذا كشف حقيقة نفسي فالمسألة بالغة الخطورة، وهي تُنبئ بأن نظام الطاغية بات على درجةٍ من الكمال تتيح له رؤية دخائل الأنفس، وبأن «روح الاستبداد» أضحت حاضرة في العالم الخارجي وفي الداخل أيضًا. صحيح أني من أبعد الناس عن السياسة وعن الحراك العلني، ومن أكثرهم اختصارًا، لكني أكنّ في نفسي رفضًا لا حدود له لنظام الاستبداد. أعتقد في قرارتي أني الأشدّ عداءً له في كلّ هذه البلاد. ليس لأسبابٍ فكرية في الدرجة الأولى، بل لأسبابٍ وجودية تعود إلى تعلّقي المفرط بحريتي، مما ذكرته من قبل، وهو أمرٌ آتٍ من طبيعتي، ومن جوهري الأعمق، لا سلطة لي عليه، ولا قدرة لي على المساس به. ومن شدّة خشيتي فقدان حريّتي، نشأ لديّ ما أسمّيه «اليقظة المأسوية للتاريخ»، حيث انصبّ اهتمامي ليلًا

ونهارًا على فهم الاستبداد، في طبيعته، ومساراته وتجلياته على مدى القرون الخمسة الأخيرة، كما في بنيته الحاضرة، مع توقٍ عميق لإدراك نقاط القوة ومواقع الخلل فيه، وما يُحدِثه من اضطرابات مرئيّة، أو خفيّة، داخل النفوس. حينئذٍ بدأتُ أحضّر للرواية التي أتناول فيها هذه اليقظة عبر أحداث ووقائع عشتها. وكانت تراودني بإلحاح فكرة السفر ورغبة الإقامة في فندقٍ صغير أحبّه عند شاطئ شيربورغ لأنصرف للكتابة. هل اكتشفتْ «عين الطاغية»، بوسيلة أو بأخرى، ما يجول في خاطري، فقطعتْ عليّ سريعًا الطريق، وقادتني في تلك الليلة الليلاء إلى «حصن الميناء»؟

لم تعد تقتصر تصوّراتي على ساعات النهار، بل انتقلتْ أيضًا إلى حياتي الليلية. فالطاغية الماثل طوال الوقت أمامي، بات يدلف سريعًا إلى أحلامي التي، من كثرة انقطاعي عن الخارج وانكفائي على داخلي، أضحتْ على غرابتها شبه موصولة بعوالم اليقظة، وما يحدث فيها بات أحيانًا هو الأهمّ. رأيتُ نفسي المرّة الأخيرة في الحلم وأنا أجول داخل «متحف الطيور» الذي اعتدتُ ارتياده في مدينة السين على مقربةٍ من مسكني آنذاك في الضفة اليسرى. وقع نظري على صورة طائر لم أرَه من قبل، عرفتُ أنه العنقاء. ثم لفتتْ انتباهي في القاعة صورة طائر أسطوري آخر، كائن أقرب ما يكون إلى طائر

البحر الكبير كما يبدو في بعض الرسوم السوريالية، كان يرنو إليَّ من بعيد. اقتربتُ منه ونظرتُ إليه، فإذا هو، يا للغرابة، الطاغية نفسه. قلتُ متسائلًا: «كيف تحوّل الطاغية طائرًا؟ وكيف انتقل من غرفة السجن إلى هذا المكان النائي؟». أنعمتُ النظر إليه، ووجدتُه في شكله الجديد أكثر إلفةً، وأكثر إنسانيةً مما هو عليه في صورة السجن. وتراءى لي في المنام أن سرّه الحقيقي لا يكمن في ابتسامته الغامضة، ولا في عينيه الصغيرتين الثاقبتين، ولا في ملامح وجهه الخافت، الصارم، بل في صدره. صدره النحيل، العاري، الذي يشبه هنا صدور الطاعنين في السنّ، هو سرّه الأعمق. قلت لنفسي، أغلب الظن أن قسوته وحنكته وقدرته على تبيّن الأخطار في أوكارها الخفيّة، هي ردّ فعل على هشاشة صدره. وقلت أيضًا في الحلم، إن نقطة ارتكازه اللاواعية تقوم على هذه المعادلة: جبروت الشعور والعقل والإرادة، الذي تمثّله النفس، في وجه الهشاشة العضوية، الحيوانية، التي يمثّلها الصدر. وتخيّلتُ في الحلم أنه وعى ضمور صدره منذ الطفولة، حين نظر إلى نفسه للمرّة الأولى في المرآة، فبدأت عذاباته. وتخيّلتُه في البيئة التي نشأ فيها، كيف كان يرتعب من قطع أعناق الطيور والبهائم من حوله، فينقطع نَفَسه. وكيف هزّتْه وكادتْ تخنقه مشاهدة الأجساد المُعَلّقة، والحبال المعقودة حول أعناقها، حيث كان

الشنق هو وسيلة الإعدام السائدة. وبدلًا من الغرق في مخاوفه وهواجسه، استطاع تحويلها توقًا إلى السلطة لا يُقاوَم، وعبقريةً في ممارستها بأقصى أشكالها.

أحدّق الآن في صورة الطاغية قبالتي فلا أجد شبهًا بينه وبين طائر الحلم، وأجد صدره صلبًا، لا نحول ولا هشاشة فيه قطّ، فمن أين تأتي هذه الأحلام؟ تقول ابتسامته ونظرته وملامح وجهه، إنه مهما ذهبتم بعيدًا في الافتراض والتوقّع، ومهما جنح بكم الخيال، وانتابتكم الأحلام، فإنكم لن تصلوا إلى قعر لجّتي، ولن تستطيعوا سبر كلّ ما أختزنه من أساليب الدهاء والتوقّع واستباق الأفعال، وأشياء كثيرة أخرى لن تخطر على بال أحد منكم. فلديَّ منها ما كفاني لبسط سلطاني على بلاد ما بين النهرين وبلاد العاصي منذ ثلاثين عامًا، وما يكفيني لتوريث سلطتي من بعدي لأولادي وأحفادي، ولمدّ حكمي إلى بلدان أخرى. وما اعتقالكَ أنتَ أيها الكاتب إلّا حدثٌ لا يُذكَر في بحر الوقائع التي أرسيتُ عليها بصبرٍ وطول أناة نظامي، في الازدواج الأمثل بين الظاهر الذي لا شائبة فيه والباطن، وبين الخطاب المصوغ بفائق العناية والفعل، وبين ابتسامة الشفاه وسطوة الروح. فما أنتَ إلّا ذرّة غبار غير مرئيّة في عالمي. لكن على رغم ذلك، لا أترك أمرًا، مهما صغُرَ شأنه، للقدر، وأنا أركّز عليك مثلما أفعل مع ألدّ أعدائي.

فشبكة تفكيري تعمل بلا توقّف ليلًا ونهارًا، وتطال في مسرحها الشاسع ليس كلّ ما هو قائم وحادث فحسب، بل كلّ ما هو ممكن الحدوث في كلّ لحظة أيضًا، على مدى هذه البلاد، على مدى هذا العالم. فمن أنتَ لتسعى إلى فهم سرّي وبيان أمري؟

## - ٨ -

لم أكن أتوقّع قطّ أن تزورني رانيا في سجني، ولم أكن أتصوّر أني سألتقي بها من جديد في أيّ مكان. عندما حضرتْ إلى «حصن الميناء» قبل نحو شهر ونصف شهر وطلبتْ من آمر السجن رؤيتي، وقفتُ مدهوشًا غير مُصدِّق عينيّ. فنحن افترقنا نهائيًّا منذ أكثر من عام. كما أن ظروف رانيا لا تتيح لها الالتقاء بي، خصوصًا في مثل هذا المكان الخاضع لمراقبة جهاز تهمّه كلّ شاردة وواردة في حياة الناس.

التقيتُ رانيا المرّة الأولى ذات صبيحة، أواسط الخريف، حيث كنتُ أقصد مقهى «الشراع الأبيض» على شاطئ النخلتين، في وقت مبكر على غير عادتي. اجتزتُ الطريق نحو رصيف المقهى، مارًّا قرب مبنى محاط بفناء مسوّر، طالما

لفت انتباهي بطبقتيه الأنيقتين وقرميده، وبأبوابه ونوافذه المغلقة على الدوام، كأنه غير مسكون. لكن لحظة وصولي أمام السوار، فوجئتُ هذه المرّة بامرأة تنقل بيدها حقيبة، كأنها عائدة من السفر، تهمّ بفتح باب البيت، فنظر أحدنا إلى الآخر. لكن تلك النظرة طال أمدها، إذ بدا على المرأة أنها فوجئتْ هي أيضًا، أكثر مني، بحضوري في تلك اللحظة، في هذا المكان. استمرّتْ في النظر إليّ عازفةً عن فتح الباب، يدها على المفتاح وعيناها عليّ، فتوقّفتُ بدوري، واستمررتُ في النظر إليها، مما لا أفعله عادةً، إذ أتجنّب التحديق في الآخر ولا أرى إليه إلا بخفر. بقينا على هذه الحال بعض الوقت، متفحّصًا أحدنا الآخر، قبل أن تشيح المرأة بوجهها وتلج البيت، وأكمِلُ أنا طريقي إلى «الشراع الأبيض».

أدركتُ فورًا، ثمّ أكثر فأكثر مع مرور الوقت، أن تلك النظرة الطويلة، غير المعهودة، اخترقتْ عميقًا أرجاء ذاتي، ولا بدّ أن الأمر نفسه قد حدث مع تلك المرأة. ليس بمعنى الحبّ من النظرة الأولى، كلا، بل بمعنى المعرفة والاكتشاف. كأن يعرف الواحد الآخر من النظرة الأولى، كأنه يرى من نافذة نفسه إلى ما فيها. إنه لأمرٌ نادر الحدوث. فهي المرّة الأولى التي أعي فيها مثل هذه النظرة - النافذة، المفتوحة على ذات الآخر. خُيِّل إليَّ وأنا جالس في المقهى أمام البحر، أننا أدركنا

عبرها، أنا وهي، أننا نعرف المدن نفسها ونهوى الأمكنة نفسها. كأني اكتشفتُ، وهي أيضًا، أننا أقمنا في باريس، وبروج، وسان مالو، والبندقية، وفلورنسا، وأرل، وروما، وأننا نرتاد ونحبّ الجسور نفسها، والمقاهي نفسها، والقرى المشيّدة على ضفاف الأنهر، والمرافئ الصغيرة عند شاطئ المحيط، والخلجان، ودروب الغابات، نفسها. وأننا نعرف ونحبّ اللوحات والألحان نفسها، والصروح والحدائق والبيوت والفنادق نفسها. وكأننا أدركنا أيضًا من تلك النظرة ما نحن فيه الآن: الاستقرار بعد طول تنقّل وترحال، وبعد الاستقرار، هذا التوق العائد، إلى الرحيل. وعرفنا أن كلًّا منا هارب إلى ماضيه، وسط الركام. وهاربٌ إلى جزره الداخلية النائية، التي يلوذ بها ويأمن اليها. وأن جزرنا الداخلية كثيرة التشابه، إن لم تكن هي نفسها.

بعد ذلك اللقاء الخاطف، لم أعد أصادف تلك المرأة. فمثلما ظهرتْ على حين غرّة، اختفتْ أيضًا. كنت أتعمّد العبور أمام البيت نفسه، مرّات عدّة في اليوم أحيانا، وآتي خصيصًا إلى الشاطئ لهذه الغاية، لكن البيت كان مقفلًا على الدوام كالمعتاد، وما من أثر لتلك المرأة. بحيث بتّ أتساءل في سرّي أحيانًا، إذا كنتُ شاهدتها حقًّا تفتح هذا الباب. شيئًا فشيئًا مع مرور الوقت، ما عدتُ أبحث عنها.

انقضتْ أشهر. وذات نهار، قصدتُ المدينة البحرية مفتِّشًا عن كتاب، فدخلتُ إحدى المكتبات البعيدة عن الشاطئ، في محيط الحي القديم، كنت أرتادها مطلع صبايَ لقربها آنذاك من مدرستي. وإذ بي أجد نفسي وجهًا لوجه مع تلك المرأة. أُصبتُ بالذهول، وهي أيضًا. كان لقاءً مرتبكًا، متعثّرًا. كان عليَّ أن أسألها هي نفسها عما أريد، إذ بدتْ كأنها تدير هذه المكتبة الفسيحة، الغنيّة، الحسنة التنظيم، حيث لم ألحظ أحدًا سواها. ذهبتْ إلى أحد الرفوف في عمق المكان لتُحضِر لي الكتاب. هممتُ باللحاق بها لأكلّمها بعيدًا عن الأنظار، لكنني شعرتُ أني لن أقول لها شيئًا فبقيتُ مكاني. ولمّا عادتْ، ابتسمتْ بخجل وقالتْ بصوتٍ خفيض إنها تُحبّ كثيرًا هذا الكتاب. دخلتْ ابتسامتها وكلماتها عميقًا إلى قلبي، لكنني لم أجد ما أجيبها به إلّا عبارة «وأنا أيضًا». منذ ذلك اليوم أدركتُ أني وقعتُ في غرام هذه المرأة، التي باتتْ تشغل فكري طوال الوقت، وترتسم صورتها في داخلي كلّ صباح عند لحظة اليقظة الأولى، وهي علامة لديَّ لا تُخطئ. ثمّ بانتْ كل تلك الإشارات، إشارات الوله الذي بدأ، المنبئة بولادة عالم جديد، التي تنير ليل الذات بإضاءات سحرية.

كان كلّ شيء إذًا، قائمًا في تلك النظرة الأولى ومرسومًا فيها. وكل ما تلى ذلك بات محتومًا. خصوصًا اللقاء من طريق

المصادفة، وهو ليس غريبًا عني قطّ إذ عرفته جيّدًا في الماضي. اللقاء - المصادفة الذي تكرّر مرارًا على نحوٍ غريب، في قصص الوله بآنّا، ولورا، وخصوصًا فيرونيكا، على مدى سنوات هجرتي الطويلة، والذي يعود الآن أيضًا. ما الذي يُفسّر اللقاء - المصادفة غير الرغبة الهائلة في حدوثه؟ وما الذي قاد خطايَ ذلك اليوم إلى «مكتبة المعارف»، في جوار «برج الساعة» العثماني، وأنا لم أمرّ قربها، ولم ألج بابها منذ زمن الصبا الأوّل؟

مع ذلك، طرحتْ عليَّ علاقتي برانيا تساؤلات كثيرة لا أملك الإجابة عنها. كيف، بعد ما خلته «انتهاء زمن الوله»، يصبح فجأةً شخصٌ ما، هو هذه المرأة، مختلفًا على هذا النحو عن سائر الكائنات؟ وكيف، بهذه الفرادة، وبهذا الجاذب الذي لا يوصف، يصبح هو الأوحد في هذه المدينة، في هذا العالم؟ ولا يعود من اهتمام برؤية أحدٍ سواه، كأنه في جسده وروحه، أضحى من طبيعة بشرية أخرى؟

كانت رانيا في مطلع الثلاثينات، طويلة القامة، هيفاء القدّ، حنطيّة البشرة على كثير من النقاء، رقيقة التقاطيع، بهيّة المحيّا، بعينيها السوداوين، وشعرها الأملس الأسود، وشفتيها الورديتين. لكنّها على رونقها، لا تلتقي مع صورة «المرأة

الحبيبة» التي حملتُها طويلًا في داخلي منذ حداثتي، والتي قادتني ربما إلى كلّ من أحببت. بل هي بعيدة تمامًا عن ذلك المثال الذي كنت أعرف صاحبته من بين عشرات الأشخاص في قاعة ما، أو في الشارع، أو في أيّ مكان آخر، فأقول في سرّي «هذه هي». فلو التقيتُ رانيا قبل عقد من الزمن أو أكثر، هل كنتُ انجذبتُ إليها حقًّا؟ هل تغيّرتْ صورة «المرأة الحبيبة» شيئًا فشيئًا في نفسي مع مرور الوقت من دون أن أدري؟ تُرى، هي التي تغيّرتْ، أم أنا؟

ثمّ كيف عادتْ نظرتي إلى المرأة، بين ليلة وضحاها، إلى ما كانت عليه في البدء؟ ذلك السحر الأوّل، سحر المرأة - الحلم، والشغف الماحي كلّ ما عداه، باتت تفصلني عنهما أزمنة من الاكتشافات، والبدايات والنهايات، والأحداث المفعمة بالأفراح والأحزان، والقصص المثقلة باللقاءات والغيابات والانتظارات والعودات والانفصالات، وعيش مآل الأشياء قبل وقوعه، ومعرفة خفايا الأجساد وأسرارها وتناقضات الأنفس، ورؤية التحوّلات المأسوية فيها المنبئة بالهشاشة والموت، فكيف تراني عائدًا هكذا إلى نقطة البداية؟

- ٩ -

تكرّرتْ زياراتي لـ«مكتبة المعارف» حيث كنتُ ألتقي رانيا. لكن عندما، بعد أسابيع، سألتها أن نتواعد في مكان آخر، شعرتْ بالإحراج، وقالتْ بصوت خافت إن هذه المدينة عبارة عن قرية كبيرة، كلّ الناس فيها يعرف كلّ الناس، وهي لا تريد أن تطالها الأقاويل. لكني ألححتُ عليها، فاتّفقنا على موعد بعيدٍ عن الأنظار، في مقهى «الأميرة ثريّا» العائم، الذي غالبًا ما يقصده السيّاح خلال فصل الصيف للانطلاق منه إلى النزهات البحرية. لم يكن هناك سوانا عشية ذلك اليوم الماطر، فجلسنا في إحدى الزوايا وجهًا لوجه للمرّة الأولى. أخبرتني رانيا في هذا اللقاء أمورًا عديدة عن حياتها الشخصية. أعلمتني أولًا، أنها متزوّجة ولها ولد في سنّ العاشرة، مما فاجأني وهزّني في

أعماقي. لم أكن أتوقّع ذلك قطّ، فلا شيء كان يوحي لي به. وقد سعيتُ بكل قوايَ كي أتمالك نفسي وأخفي ما اعتراني من دهشة وتأثّر.

ثم أضافتْ بعد فترة من الصمت، أنها تقيم منذ مدّة مع ابنها في بيت أهلها في المدينة القديمة، بينما يعمل زوجها في روَان، شمال غرب فرنسا، فتلتقي العائلة هنا أو هناك في العطل السنوية. وأوضحتْ أنها هي التي قرّرت المجيء إلى هنا مع ابنها، كي تساعد والدها في إدارة هذه المكتبة العريقة التي توالتْ على ارتيادها نخب المدينة، جيلًا بعد آخر، كونها ابنته الوحيدة، وقد كبر في السنّ وفقد أمها قبل سنوات. وذكرتْ أن والدها يملك منزلًا آخر انتقل إليه من طريق الوراثة، هو البيت المقفل عند شاطئ النخلتين، قرب مقهى «الشراع الأبيض»، حيث رأيتها المرّة الأولى. وأنه كي يشجّعها على الاستقرار وعدم السفر، عرض عليها الإقامة، هي وابنها وحدهما في هذا البيت، ويبقى هو في منزله في المدينة القديمة. وأنها تفكّر جدّيًا في هذا الاحتمال الذي يتيح، في آنٍ واحد، حياةً مستقلّة لها ولابنها، ويبقيها على مقربة من أبيها تساعده في إدارة المكتبة. كما ينقلها إلى جوار البحر الذي تكنّ له حبًّا لا يوصف.

هذه التفاصيل عن حياتها التي كنتُ أتوق إلى سماعها

بشوق وشغف، إذ تُكمِل صورتها في نفسي وتجعلها ملموسةً أكثر، تحولت الآن ما يُشبه السهام الدقيقة الجارحة الموجّهة إليَّ عن قرب، الواحد تلو الآخر، بعد الطعنة النجلاء التي أصابني بها خبر زواجها، فأضحيتُ في سرّي متلقيًا واهنًا لا أقوى على شيء، أصغي إليها كما يستسلم الجريح لجلّاده، وهي غير دارية بما يجري. لكن وسط عذابي وفي مكان عميق منه، كنتُ أشعر بما يشبه الرضى والحبور الغريبين. كأن ما أسمعه الآن، على قسوته ومرارته، يختصر الآلام الموعودة، المرسومة، لهذا الوله، لكلّ وله، ويُنبئ بها، ويكشفها، ويجهضها قبل وقوعها. كأنها رسالة آتية إليَّ بأن أنهض وأنجو بنفسي، وبأنه من حسن فألي أن يكون الطريق مسدودًا من بدايته، وليس في وسطه، أو أواخره. هكذا، يمتزج الألم بما يشبه الارتياح والنشوة، في العديد من اللحظات الرهيبة، منها لحظة الوله اليائس، ومنها لحظة الاقتراب الأقصى من الموت. يشعر المرء في حينه، أن هذا الشيء البالغ التعقيد والتناقض الذي هو الوله، الذي هو الحياة، يقترب من الانحلال والتلاشي، ويقترب من التحوّل عنصرًا بسيطًا، هادئًا، آمنًا، رهيفًا، لا موضع فيه للهواجس والمخاوف والصراعات والأوجاع، فلا يعود المرء يريد العودة إلى الوراء، ويقول لنفسه في تلك اللحظة: «لماذا لم يحدث ذلك من قبل، ومن زمان؟».

لعلّ رانيا أدركت بحسّها الأعمق ما يتفاعل في نفسي من اضطراب، وخصوصًا أنّي التزمتُ الصمت، ولم أعلّق بشيءٍ على ما أوردته، فتوغّلتْ في الكلام عن ذاتها، لكن هذه المرّة في وجهة أخرى، تُبرز هشاشتها، وتُظهِر الجوانب المأسوية في شخصها وحياتها، كأنها في صورة لاواعية، تُريد تصحيح شيء ما، لا تُدرك بوضوح ما هو، إنْ هو إلا إحساسها الدفين بأنّي متألّم، وبأن حركةً ما للانفصال عنها بدأتْ ترتسم في داخلي. كأنها تقول لي عبر ما تبوح به من أمور حميمة: «لا تبتعد، لا ترحل».

أخبرتني أنها سلكتْ مثلي وجهة الغرب لتلقّي العلم. كانت في الثامنة عشرة عندما قرّرت الذهاب الى ستراسبورغ للتخصّص في الطب. لكن لم يكن واردًا لدى والديها أن يدعاها تسافر وتقيم هناك وحدها. هكذا جرتْ خطبتها إلى شابّ من بيئتها كان يودّ هو أيضًا السفر للتخصّص. كانت تعرفه منذ سنيّ الدراسة وترتاح له، لِما كان يمتاز به من خفر وسلوك حسن. فكان سفرهما معًا إلى مدينة الرين لدراسة العلوم الطبيّة، على أن يعودا في بحر العام لعقد قرانهما. أقاما هناك في مكانين منفصلين، لكنهما كانا على اتصال يومي وثيق خلال أوقات الدراسة وخارجها، إلى أن يحلّ الليل فيذهب كلٌّ منهما الى مأواه. اشتدّ تعلّقها بخطيبها أكثر فأكثر، إذ كان

هو رفيقها الأوحد وخشبة خلاصها في هذا العالم الجديد الذي تجهل مكنوناته وتخشى خفاياه. لكن بعد نحو ثلاثة أشهر، وبينما كانا يتحضّران للعودة لعقد قرانهما، بدأتْ تشعر ببعض الفتور في علاقته بها. شيئًا فشيئًا أقرّ لها بأنه تعرّف إلى فتاة ألمانية، وهو بحاجة لمزيد من الوقت لحسم موضوع الزواج. ثم علمتْ بعد حين أنه يقيم مع تلك الفتاة في شقّة واحدة.

هكذا وقعتْ مطلع صباها في هوّة سحيقة باتتْ تتخبّط فيها وحيدةً في عالم غريب، بعيدة عن بيئتها وأترابها، وقد منعتها كبرياؤها، ورغبتها في عدم إثارة قلق والديها، وتوهّمها القدرة على حلّ مشكلتها بنفسها، من إخبار ذويها بأيّ شيء. انقطعتْ عن الدروس وأخذتْ تعالج لهيب نفسها بالمشي في أرجاء ستراسبورغ، هائمةً على وجهها في صقيع الشتاء بلا وجهة ولا هدف، طوال ساعات النهار وحتى أوقات متأخّرة من الليل. راودتها مرارًا فكرة الانتحار، لكنها لم تقوَ على رمي نفسها في مياه الرين الداكنة، الباردة. واستمرّتْ على هذه الحال فترةً من الزمن، إلى أن صدمتها ذات مساء سيارة على أحد الجسور، فاستفاقتْ لا تدري متى، على سرير في المستشفى وأمّها وأبوها إلى جانبها.

بعدما عولِجتْ طويلًا وتعافتْ، رفضت العودة مع والديها

اللذين تفانيا في إحاطتها بالعطف والاهتمام ولم يتركاها لحظةً واحدة. لكنها لم تعد ترغب البقاء في ستراسبورغ. باتتْ تنفر من المدينة، من الأمكنة التي عرفتها مع خطيبها، ومن كلّ ما يمتّ إليه بصلة، بما فيها دراسة الطبّ. هكذا قطعتْ علاقتها كليًّا بذلك الماضي، فانتقلتْ إلى باريس التي أحبّتها، وأقامتْ في شقّة صغيرة وأنيقة تُشرِف على «حلبة لوتيسيا» الرومانية الأثرية، وعملتْ على بناء حياتها من جديد. تركت الطبّ وبدأتْ دراسة تاريخ الفن في جامعة السوربون، حيث تعرّفتْ بعد سنوات إلى زوجها الذي تربطه بها صلة نسب بعيدة، والذي كان يُنجز أطروحته في الفلسفة. لعب دورًا مهمًّا في بلسمة جراح ماضيها، فتزوّجا، ورُزقا طفلًا، وانتقلت العائلة إلى مدينة روّان حيث عمل الزوج أستاذًا في جامعتها ولا يزال.

طال لقاؤنا في مقهى «الأميرة ثريّا» وانتبهتْ رانيا أنها تأخّرتْ كثيرًا في العودة. رافقتُها إلى المدينة القديمة حتى مشارف بيتها. تبادلنا كلمات قليلة على الطريق، وكان كلٌّ منا غائصًا في ذاته لا يدري ما العمل بعد الآن. لاحظتُ أنها لم تذكر ولا مرّة أثناء حديثها في المقهى اسم زوجها، أو خطيبها السابق، واكتفتْ بذكر اسم ابنها، هادي. حين حلّت لحظة الفراق، نظرتُ إليها وقلتُ لها «إلى اللقاء»، مما يعني في الحقيقة أنّ لا لقاء بعد اليوم. أخذتْ يدي بيدها وطبعتْ

قبلةً على خدّي، ثم اختفتْ في عتمة الليل.

هكذا تحوّلتْ رانيا جرحًا عميقًا في نفسي. وتحوّلتُ أنا ربما أيضًا جرحًا عميقًا في نفسها. ولن يبقى مسار حياتنا الداخلية كما كان عليه من قبل، سواء التقينا أم لم نلتقِ. توقّفتُ عن زيارة «مكتبة المعارف». وحين كان يقوى شوقي لرؤيتها، كنت أقبع داخل مقهى شعبي على الطريق بين المكتبة وبيتها، منتظرًا مرورها المسائي، مثبتًا عينيَّ عليها من حين ظهورها إلى حين اختفائها وراء المنعطف. لم أكن أنتبه إلى أحد، ولا أرى أحدًا، في هذا السيل الذي لا يتوقّف من المارّة، عابري المساء، ولا أعي أن كلًا منهم هو كونٌ فريد في ذاته، في جسده وروحه، وفي مسارات حياته وذاكرته ومصيره. كأنه موكب أشباح يسري في الفراغ والظلمة، قبل ظهورها وبعد اختفائها عن ناظري. لم أكن أستطيع تبيّن ملامحها من حيث أنا، بل عبورها فقط، فكنتُ أطمئنّ إلى وجودها في هذه الأمكنة نفسها، ويُخيّل إليَّ أنها تفكّر فيَّ طوال الطريق، طوال الوقت، مثلما أفكّر أنا فيها. وقد تحوّل انتظاري مرورها في هذا المقهى نوعًا من العلاقة الحسيّة معها، وطقسًا يوميًّا استمررتُ فيه بلا انقطاع إلى حين اعتقالي.

في هذا الجانب القديم من المدينة البحريّة، في هذا الحيّ

الكبير، القائم على جانبَي النهر الجافّ، المنبسط في أرجاء الضفّة اليمنى، المتدرّج صعودًا أعلى فأعلى على سفح الضفّة اليسرى، المجمّعة فيه الأبنية بعضها فوق البعض الآخر بمختلف حقبها التاريخيّة منذ ألف عام، المتداخلة أزقّته، وأسواقه، وأدراجه، وسراديبه، المتوالية فيه حيوات ومصائر لا عدّ لها ولا حصر، ثمّة بيتٌ واحد أمامه شجرة صنوبر، ثمّة مكانٌ مغلق، يُقيم فيه جسدها الأبيض، النقي، البضّ، البالغ النعومة والعذوبة، الذي يشعّ منه نور ودفء وسرّ يصعب إدراك أغوارها. إنها هناك، في المخبأ المصون المظلّل، في عمق هذا التراكم الهائل، جوهرته الفريدة العجيبة، المقيمة في مجاهل باطنه.

## - ١٠ -

كان حضور رانيا المرّة الأولى إلى «حصن الميناء» أقرب إلى الظهور منه إلى الحقيقة. لم أصدّق ناظري. خلتُني أرى طيفها وليس هي. فمجيئها إلى هنا يعني المغامرة بأمور جوهريّة لديها، ليس أقلّها علاقتها بزوجها، وبوالدها الذي لا يرضى عن ذلك قطّ، وبما يطال سمعتها في المدينة إذا ما ارتأى الجهاز، لسببٍ أو لآخر، نقل الخبر لعملائه الكُثر وللصحف الصفراء المؤتمرة به. لكن رانيا كانت تتقدّم بهدوء في القاعة، بطلّتها الأنيقة وردائها الأزرق الغامق، غير آبهة بأعين الحرس، لتجلس قبالتي حول الطاولة الخشبية نفسها. عندما هممتُ بسؤالها عن مغامرة القدوم إلى هنا، وضعتْ إصبعها على شفتيّ متمنيةً عدم الكلام عن الأمر. قالت فقط

بصوت خافت: «لم أحتمل إلقاء القبض عليك»، ثم أضافتْ بعد صمت وجيز: «تُرى لمَ أنتَ هنا؟». أجبتها أني لا أعرف، ولا أحد يعرف السبب. مضتْ نصف الساعة كلمح البصر. كنت مأخوذًا بها الى حدّ الغياب. تبادلنا كلمات قليلة. بعدما رحلتْ، بتّ أرى وجهها بشكلٍ أوضح. بقي في فكري قولها إنها ستأتي لزيارتي كلّ أسبوع في هذا النهار نفسه، وإنها ستنتقل هي وابنها قريبًا من المدينة القديمة إلى بيت الشاطئ.

بعدها، عندما أعادوني إلى غرفتي، استمرّ شعوري بحضور رانيا إلى جانبي كأنها لم تبرح المكان. لكني أحسستُ بوطأة اعتقالي أكثر من أي وقت، وبهول فقداني حريّتي بين هذه الجدران الباردة، الكئيبة، من دون إدراك السبب. تساءلتُ: إلى متى يمكن أن يستمرّ ذلك؟ فمن المعلوم أن النظام يعتقل من يشاء لسنوات، من دون أيّ تحقيق أو محاكمة، ويمكن أن يختفي خلالها السجين فلا يُعرَف مكانه ولا مصيره. وهناك عشرات الألوف من المفقودين، الضائعة صورهم بين عالم الأحياء وعالم الأموات. تُراني ذاهبًا إلى هذه الحالة؟ لا سميع حولي ولا مُجيب، ولا ضوء يُنبئ بما ينتظرني.

توالتْ زيارات رانيا إلى «حصن الميناء» على نحوٍ منتظم. كانت تحضر كلّ يوم أربعاء، الساعة الخامسة بعد الظهر،

وتُبارح قبل أن يغلق الحصن أبوابه عند السادسة. كنا نتحدّث عن أمور كثيرة، لكنها لم تأتِ ولا مرّة على ذكر زوجها أو أبيها. كنّا نتصرّف بكثير من الخفر. كانتْ تتقدّم نحوي فأنهض عن كرسيَّ واقفًا وراء الطاولة، ثم نجلس معًا وجهًا لوجه، وعند الانتهاء كنت أنهض من جديد وأقف حتى مغادرتها القاعة. كنا نتحاور على الدوام بصوت خفيض يشبه الهمس. لم يلمس أحدنا الآخر ولا مرّة، باستثناء الزيارة الأولى حين وضعتْ إصبعها على شفتيَّ كي لا أتكلّم. كانت علاقتنا في كلّ لقاء تقوى أكثر. لم تكن مواعيدنا حواريّة ونفسية فقط. لا أدري كيف أفسّر ذلك. مع أن أحدنا لم يكن يلمس الآخر، كانت لقاءاتنا حسّية وجسديّة أيضًا. كانتْ تواصلًا عميقًا بين روحينا وجسدينا معًا، كما لو كنا نرقد في سريرٍ واحد.

كانتْ أحاديثنا حميمة على الدوام، كأنها محاورات داخل الذات. لم نكن نتطرّق إلى نوافل الأمور، بل إلى ما يجول في عمق نفوسنا، فيرى كلٌّ منا إلى الآخر كما في مرآة. وفي بعض الأحيان، كانتْ «حوارات السجن» تصل إلى المناطق القصيّة، المظلمة، في دخائلنا، مما لا نعيه دومًا، أو مما ندفنه وننساه، فلا نبوح به لأحد ونكاد نخفيه عن أنفسنا. قالت لي بمودّة في لقائنا الأخير، إن ما ستسألني عنه لا ينطوي إطلاقًا على لوم أو انتقاد، بل على رغبة في الإدراك لا أكثر. فهي، على رغم

التشابه الكبير بين شخصينا، لا تفهم في صورة ما، كيف كانت لي خلال هجرتي علاقات حبّ قوية مع فتيات غربيات، وأنها تردّدتْ كثيرًا قبل التعبير عن هذا الشعور غير المألوف. لكن، بما أنها تحسّ به حقًّا، فهي عزمتْ على مصارحتي به من دون تمويه. فاجأني سؤالها ولم أعرف كيف أجيب. قلتُ في نفسي إنها تنظر على الأرجح إلى الأمر من زاوية أجهلها، فسألتُها بعد لحظة صمت، لماذا تستغرب ذلك. لم تُجبْني هي أيضًا، بل أكملتْ قائلةً، إنها من جهتها، وطوال السنوات التي أمضتها في مدينة السين، لم تقع في حبّ أيّ رجل غربي، وهو احتمال غير وارد لديها قطّ. كان لها أصدقاء، لا أكثر. لكن من غير الممكن أن تقوم بينها وبين أحدهم علاقة أعمق، خصوصًا علاقة جسدية. فهو أمرٌ مستحيل. أضافتْ أنها تشعر بكثير من الصعوبة والإحراج إذ تحاول تفسير ذلك، وهي في كلّ حال، غير متأكّدة من صحّة تفسيرها. قالتْ إن الرجل الغربي يبدو لها «كأنّه غير موصول بمكان، غير مرتبط بشيء». صمتتْ بعد ذلك باحثةً عن عبارات أخرى، ثم أكملتْ تقول: «كأنّه كائن موقّت، عابر، غير حقيقي الوجود. وكأن العلاقة معه تنتهي من جانبه بلا عودة، ولا أسى، ولا ذاكرة. أشعر كأن الرجل الغربي مزوّد نزعة الاكتشاف لا الحبّ، وأنانية مطلقة، لا ينفع رونقه إذا كان جميلًا، ولا معرفته إذا كان مثقّفًا، ولا أناقته، ولا

تهذيبه، في حجبها عن نظري أو نفيها. وإن فعلَ الحبّ والعلاقة الجسدية لا يعودان ممكنين في ظلّ هذا الشعور».

لم أدرِ بما أجيب. فهي لا تتحدّث في الأفكار، بل تنقل شهادة ذاتية معيشة، بظلالها وغوامضها. هممتُ بقول ما هو معروف، أي أنه لا يمكن التعميم في هذا الشأن، فلكلّ إنسان تجربته، وهناك ربما نساء عديدات في هذه المدينة أحببنَ رجالًا غربيين، والعكس أيضًا. كانتْ ستجيبني بالتأكيد أنها تعلم ذلك كلّه وهي لا تتحدّث عنه. لكن قبل أن أقول شيئًا - إذ بدتْ غير منتظرة جوابي - استمرّتْ في حوارها الهامس منتقلةً إلى موضوع آخر، وقد بدا عليها التأثّر. قالتْ إنها تمرّ في تلك المرحلة التي يلاحق فيها الإنسان نفسه بلا هوادة حول حقيقة مشاعره. يسلّط عينيه على ذاته عند هذا الحدث أو ذاك، عند هذا الخبر أو ذاك. يتساءل هل هو الحزن حقًّا الذي شعر به عند سماعه ذلك النبأ المفجع، أم هو حزنٌ مشوب بمسحة من اللامبالاة، أو أخطر من ذلك، بمسحة من الرضى، تظهر هكذا فجأةً، ثم تختفي في غياهب الذات، فلا يمكن التأكّد منها؟ ثم أضافت: «ومع أن مثل هذه المشاعر الغامضة، العابرة كالومض، الصعبة التحديد، تأتي من أمكنة خفيّة مجهولة، ومع أني غير راغبة فيها البتة، وغير قابلة بها قطّ، فهي تعذّبني، وتقلقني، وتربكني، فألاحقها جاهدةً في ظلمة

نفسي، وفي متاهة أحاسيسي، لأصل إلى حقيقتها، ولأكشف الغطاء عن سرّها. هكذا، لم أعد أركن تمامًا إلى عواطفي، وأضحتْ هذه المنطقة الشاسعة الغنيّة من ذاتي، موضع تساؤل ومتابعة دائمة مني». قلتُ لها إني أفهم تمامًا هذه الحالة وأعرف عن كثب ما هي.

بعدها سألتْني: «تذكُر طلال، خطيبي القديم الذي سافرتُ معه الى ستراسبورغ؟». كانت المرّة الأولى تشير إليه بالاسم. أجبتها: «أجل». أخبرتني أنها عِلمتْ منذ سنوات أن علاقته بتلك الصبية الالمانية لم تستمرّ طويلًا، وأنه بعد حياة عاطفية متقلّبة، انتهى به الأمر إلى الزواج من فتاة من بيئته كانت تتابع دراستها في ستراسبورغ هي أيضًا، ورُزقا بولدين، صبيّ وبنت، لا بدّ أن يكونا اليوم بين الثامنة والعاشرة من العمر. ثم عاد قبل حين مع عائلته ليمارس مهنة الطبّ هنا. سكتتْ قليلًا ثم قالت: «أتكلّم عنه الآن لأن زوجته وابنه تعرّضا الأسبوع الماضي لحادث مأسوي على الطريق الساحلي. كانت المرأة تتولّى القيادة ومعها ولدها في المقعد الخلفي حين انزلقتْ بهما السيّارة في النزلة بعد النَفَق واصطدمتْ بالحائط الصخري هناك، ولا يزالان حتى اليوم في المستشفى بين الحياة والموت».

قالت إنه منذ سماعها خبر الحادث من أحد روّاد المكتبة،

أخذتْ تنظر إلى مشاعرها بشكٍّ وريبة. فبعدما عبّرتْ أمام مَن أخبرها عن ذهولها وأملها بخلاص الأم وطفلها، راحتْ تواجه نفسها لمعرفة حقيقة ما أحسّتْ به. بدأتْ ملاحقةً لا هوادة فيها لما يجري في دخائلها، أنستْها سائر المشاغل وصرفتْ نظرها عن وقائع حياتها اليومية. «ماذا شعرتُ حقًّا إزاء هذا الحادث؟»، هو التساؤل الكبير، المؤلم، الذي لا تزال تجهد نفسها للإجابة عنه، وهو يهيمن عليها الآن أيضًا وهي جالسة أمامي ساعة المغيب داخل هذا السجن. وخوفًا من أن يكون تسرّب بعض الرضى أو الارتياح، من خارج إرادتها ووعيها، إلى الأسى تجاه ما حدث، ستلجأ إلى العزلة التامّة طوال الأيام القادمة للتأمّل في ذاتها والصلاة من أجل شفاء الجريحين.

شعرتُ بتعاطف عميق معها. كان اللقاء قد دنا من نهايته. وقفتُ كالعادة لأودّعها. كانت أعين الحرس، كما في كلّ مرّة، مُثبتة علينا. امتلكتني رغبة قوية في ضمّها إلى صدري. كأنها أدركتْ من عينيَّ ما أُحسّ به. هزّتْ رأسها بخفر مرّتين، أن «لا»، ثم قالتْ: «الى الأربعاء المقبل» ورحلتْ.

- ١١ -

حين عدتُ الى الغرفة، جلستُ قليلًا على طرف سريري ووجدتُني وجهًا لوجه مع الطاغية. أوّل ما قلتُه لنفسي: «أيّة هاوية تفصل عالم رانيا، التي يعذّبها ويؤرقها ذلك الومض الخاطف، الملتبس، في داخلها وهي غير متأكّدة منه، عن عالم الطاغية الذي ينام ملء جفونه عن تلال الجماجم التي أرسى عليها ملكه؟ تُرى، كيف تكون رانيا والطاغية من الطبيعة البشرية نفسها؟ وكيف أيضًا، تكون رانيا والذين يَقتلون بتلك الوسيلة التي أحجِمُ عن ذكرها، من الطبيعة البشرية نفسها؟».
لكن الطاغية لا يستسلم بسهولة للعابرات من الأفكار. فهو ينظر إليَّ ويُعيدني إلى ما قاله لي مرّةً أحد عارفيه ومريديه، بأنه «متصوّفٌ على طريقته، يعمل ست عشرة ساعة في اليوم بلا

توقّف، قليل الطعام والشراب، ولا يأبه لأيٍّ من ملذّات الحياة». ثم يمعن الطاغية النظر إليَّ من جديد ويضيف: «لماذا استغرابك لي، ولماذا اعتباري من طبيعة بشرية أخرى؟ كلانا هدفه واحد: تخطّي الحاضر والعابر، وتجاوز الزمن والموت، كي تكون لنا الحياة الأخرى، ليس في الجنّة أو الجحيم، بل في الذاكرة. فلكلٍّ منا وسيلته، أنتَ الكتابة وأنا السلطة».

توقّف حواري مع الطاغية فنهضتُ وجلستُ وراء الطاولة أمام الكوّتين المستديرتين اللتين ملأتهما الظلمة. ثمّة ليلة طويلة أخرى تنتظرني. ألجأ أحيانًا إلى مفكّرتي- التي أحضرتْها لي والدتي سرًّا مع الدفتر الأبيض قبل أسابيع- لأحاول الهروب من هنا، خصوصًا في الليل الهادئ، حين تدخل الطبيعة في سباتها العميق كما الآن، فلا أكاد أسمع حركة المدّ والجزر، ولا ارتعاش الريح، ولا أيّ صوت آخر. أما الليل العاصف فهو في ذاته وسيلة هروب مثلى إلى أبعد الأصقاع. أفتح المفكّرة من دون أن أقصد أمرًا ما. أقع مصادفةً على إحدى الصفحات، هي هذه المرّة انطباعات رحلة لي إلى باريس في شهر أيار قبل عامين، أغوص بكليّتي فيها:

«كم أنا سعيد باليقظة صباحًا في هذه القاعة التي تُشرِف نافذتاها الكبيرتان على فِناء مظلَّل، في هذا المبنى العائد إلى

القرن السابع عشر، حيث تصل إليَّ ضوضاء المدينة، خافتة، مبهمة، كهمس بحرٍ ناءٍ، تقطعه دقّات ساعة «البرج القديم» معلنةً تمام التاسعة. نهارٌ مضيء، شمسٌ ناعسة، برودة عذبة، طقس ربيعي لن يدوم طويلًا».

«كما في كلّ مرّة، أول ما سأفعله اليوم هو التوجّه إلى نهر السين سيرًا على القدمين لأتأمّله من فوق أحد جسوره. كأنّه هو الشخص الأقرب إليَّ في هذه المدينة، الذي عليَّ إعلامه بوصولي قبل الانتقال إلى أمكنة أخرى. غالبًا ما أضمّن رسائلي إلى أصدقائي المقيمين هنا، هذه العبارة: «أنقل سلامي وشوقي إلى صديقي نهر السين»، وأنا أعني ذلك تمامًا».

«تردّدتُ كثيرًا قبل الاتصال بلورا. بات الزمن يفصل أحدنا عن الآخر، ووقائع وأمكنة وحيوات. كان موعدنا في مقهى قرب ساحة البانتيون. ظننتُ أنها لا تودّ لقائي بعد سنوات الغياب الطويلة، خوفًا من أن يكون العمر فعل فعله فيها وهي على عتبة الخمسين. كانت في سنّ الحادية والعشرين حين عرفتُها، وقد انقضتْ عشرة أعوام على لقائي الأخير بها. لكنها ها هي هنا، بادية السرور برؤيتي، بقامتها الطويلة، الرهيفة، وعينيها العميقتَي الزرقة الناظرتين إليَّ. ثمة أثرٌ طفيف للزمن على وجهها، كما على بشرتها، سرعان ما

اعتدتُ عليه. العمرُ بادٍ فقط على يديها. يدا لورا».

«في الطرق، الكثير من الرجال الذين غزا الشيب رؤوسهم، على تفاوت أعمارهم، على تباين رشاقتهم وهم يمرّون. علامة الزمن الذي انقضى. على رغم مساراتهم المتشعّبة التي لا تُحصى في متاهة الشوارع والأزقّة، وعلى رغم أهدافهم المبعثرة في كل اتجاه، فهم يذهبون كلّهم، من دون أن يدروا، إلى المكان نفسه: انهيار أجسادهم المحتّم وموتهم».

«قال لي مُحدّثي إنه يرفض كلّ فعل يُعيد إلى الذاكرة على الدوام كائنًا ميتًا. إن ذلك يسيء إلى الميت ويزعجه في وجوده الآخر وفي اتّحاده مع الكلّ. إنه لا يفهم إصرار تلك المرأة، الذي لا يهدأ، كلّ عام، على إحياء ذكرى زوجها الرسّام الذي رحل منذ سنوات طويلة. كما أنه لا يفهم اندفاع ذلك الصديق الذي لا يُحَدّ إلى الشهرة الأدبية، وتكريسه معظم وقته لتحقيقها. إنه، من جهته، يقف في المكان المناقض كلّيًا لذلك. إنّ كلّ شيء محكوم بالنسيان، بعد عام، أو عشرة أعوام، أو بعد قرن، أو عشرين قرنًا. أيّ فرق؟ إنه يرفض نشر أيّ شيء من كتاباته. طلب مني بإصرار تامّ، إن حدث له طارئ ما، أن لا أنشر شيئًا له، أو عنه، وأن لا أقوم بأيّ أمر لإدامة ذكراه. إنّ ذلك يزعجه إلى ما لا نهاية».

«كأنه يستحيل عليَّ في خضمّ هذا السيل الذي لا يتوقّف من المارّة، وبين جمهور المقاهي والمحالّ، أن أرى امرأة جميلة واحدة. جميلة في جسدها، وفي روحها البادية على محيّاها، وفي نظرتها وحضورها. يفاجئني ذلك ويربكني. هل تغيّر الناس في هذه المدينة إلى هذا الحدّ، أم تُراني أنا من تغيّرت؟».

«إنّها السادسة بعد الظهر. تمطر على باريس. وراء بلّور النافذتين الكبيرتين، هذا المطر البطيء، الخفيف، الهادئ، المستمرّ طويلًا بلا توقّف، بإيقاعاته المبهمة وأسراره، بينما تحلّ الظلمة رويدًا رويدًا، هو نفسه الهاطل على تلك النافذتين الكبيرتين، هما أيضًا، في شقتي في حي مونج، قبل ستة عشر عامًا، وقبل ذلك بسنوات طويلة، ووراء تلك الفتحة الفسيحة في شقّتي في شارع غينومير. حين تمطر، أستعيد هذه المدينة وأستعيد ذاتي فيها. المطر المسائي، مفتاح الاحتفال السحري، حافظ ذاكرتي الباريسية».

«ما يلفت في الحشود العابرة الشوارع، المالئة المقاهي والأروقة، هو هذا المعطى الواحد: احترام الكائن البشري في ذاته. رجالٌ ونساء، من الأكثر شبابًا إلى الأكبر سنًّا، من الأجمل شكلًا إلى الأبشع، ومن الأغنى مالًا إلى الأفقر،

رجالٌ ونساء من هنا وهناك، مزيج من جميع الأصول والألوان، ينتظر كلٌّ منهم دوره بهدوء في هذا الصفّ الطويل للدخول إلى «متحف أورسيه» لمشاهدة أعمال الرسّامين الانطباعيين، لهم كلّهم بلا استثناء الحق في احترام شخصهم البشري من دون أدنى تمييز. أمرٌ بديهي وخارق معًا».

«بتُّ أدرك أكثر فأكثر لماذا يصعب عليَّ إيجاد «امرأة جميلة» في ربيع باريس. أعتقد أن السبب يكمن في الوجوه التي تلقي بظلّها على الأجساد الفتيّة، الرشيقة، الجميلة، الخفيفة الثياب. لا يعني ذلك قطّ أن الوجوه بشعة، كلا. فهي في أحيان كثيرة، على اختلاف اشكالها، توازي في جمالها الأجساد. الثغرة في مكان آخر. إن الوجوه، التي هي مرايا الداخل، تشي بما في النفوس. وجوهٌ توحي بقسوة مقنَّعة، أو بسقوط مبكر للأوهام، أو بخيبة لا شفاء منها من واقع الحياة مهما كانت، أو ببحث مضنٍ عن أمر لا تعرف صاحبته ما هو، أو بتسارعٍ ما، غالبًا ما يُفضي إلى لا شيء، أو يقود إلى متاهات لا طائل تحتها، أو بالرغبة المستحيلة في عيش حيوات عديدة معًا، أو أيضًا - كما يظهر على تقاطيع الوجوه - علامات الطفولة المعذَّبة، والفرد المقتلع الجذور، ووهم اللذّة الحالّة محلّ السعادة، حيث لم يعد من متّسع للواجب، وهذا اللااستقرار، هذا اللااستقرار الرهيب، الذي يخيّم عليه الموقّت والزائل».

«من المؤسف أننا لا نلقى في هذه المدينة رجالًا ونساءً ليس مصيرهم الموت. كلّ هذه الكائنات الشابّة، أو الأقلّ شبابًا، الجميلة، أو الأقلّ جمالًا، هي نسخٌ متشابهة، متطابقة، من هذا العِرق البشري نفسه، المهدَّدة أجساده بالتلف المحتوم مع مرور الوقت، الموعود بالانحطاط والموت. نسخٌ من العِرق البشري نفسه الموجود في كلّ المدن، وفي كلّ مكان. حتى في هذه الحاضرة البديعة، ليس هناك أثر لعِرقٍ آخر».

«يا لرونق الكتابة، آخر بعد الظهر، في هذا المكان الفاتن، المسكون بالأرواح، الذي هو «مكتبة مازارين». ساعة الحائط المذهّبة التي تدقّ بخفر كلّ ثلاثين دقيقة، أعلنت السادسة مساءً. وراء بلّور النوافذ العالية، البالغة الاتساع، المطلّة على نهر السين عند جسر الفنون، ذلك المطر نفسه».

## - ١٢ -

إنّه يوم الأربعاء. انتظرتُ طوال النهار بقلق غير مألوف موعدي مع رانيا ومرّ الوقت ببطء شديد إلى حين حلول الخامسة مساءً. كان لقاؤنا هذه المرّة على غير عادته حافلًا بالأحداث التي نقلتها رانيا إليَّ، ولا تزال تشغل فكري بلا توقّف منذ رحيلها.

أخبرتني، أوّلا، بتأثّرٍ طغى على صوتها ومحياها، أنّ زوجة الطبيب نجتْ في النهاية، لكن ولدهما توفّي. تلتْ ذلك فترة طويلة من الصمت لم أجد خلالها ما أقوله. أضافتْ رانيا بعدها أن المدينة التي تلقّت هذا الخبر بكثير من الحزن، سرعان ما نسيته تحت وطأة أحداث أخرى هزّتها في أعماقها ولا تزال تتفاعل في كلّ اتجاه. فليل الخميس الماضي، شبّ

حريق هائل في مبنى التكيّة المولوية الأثري الشهير، القائم في موقع منعزل على ضفّة النهر اليسرى، يعود بناؤه إلى أكثر من ستمئة عام. أصاب هذا الحريق المدينة في الصميم لما للتكيّة من مكانة في الذاكرة الجماعية، إذ كانت على مدى قرون من أشهر زوايا التصوّف في الشرق. زاد في مشاعر الذهول والغضب أنه تمّ ترميمها على أكمل وجه في السنوات الأخيرة، بعدما عبث بها الزمن والحروب وهجرها دراويشها فأضحت قاعًا صفصفًا. لكن الفرحة بانبعاث هذا الصرح لم تدم. ومما لا شكّ فيه أن الحريق الذي أتى عليها هو فعلٌ إجرامي مقصود، لأنها لا تزال مغلقة لم تعاود نشاطها بعد ولم يكن يسكنها أحد.

لكن حريق التكيّة المولويّة ليس هو مُصاب المدينة الوحيد. فقد اختفى بعده رجلان ممّن يُعرفون هنا بـ «أهل العلم والأدب»، هما المؤرّخ عمر الورّاق والشاعر جلال الكاشف، اللذان، بعد أيام من البحث المضني عنهما، وُجِدا مقتولَين بالطريقة نفسها، برصاصة في الرأس، ومرميين في مكانين مختلفين من المدينة القديمة، الأوّل على حافَة النهر قبالة القلعة عند سوق الأحد، والثاني في بركة خان الصابون.

قالت لي رانيا إنّي لا أستطيع تصوّر الدهشة والخشية، ولا

التساؤل والارتياب، التي تعمّ المدينة الآن، ولا موجة الشائعات والروايات المتضاربة المنتشرة فيها، والتي لا تفضي إلى مكان. فلماذا حرق التكيّة المولويّة، ومَن قام به؟ وما سرّ اختطاف الورّاق والكاشف، وقتلهما، وهما يحظيان بمحبة الناس لما لهما من سيرة حسنة وخلق رفيع، ولا عدوّ لهما على مدى حياتهما؟ من دون قصدٍ منها، تكوّن لدى رانيا الكثير من المعلومات عن القتيلين، لأن روّاد «مكتبة المعارف»، مثلهم مثل سائر أبناء المدينة، لا يتحدّثون في ما بينهم إلّا عنهما وعن الحريق. أولّ ما لفت رانيا أن الرجلين، وهما في مطلع الخمسينات من العمر وعازبان، لا تجمع بينهما صلة قرابة أو صداقة، بل علاقة عادية مثل التي تقوم بين أهل المدينة الأصليين الذين تعرف عائلاتهم بعضها البعض منذ أجيال.

لم يدرس عمر الورّاق علم التاريخ في أيّ معهد. فابن هذا البيت العريق في امتهان النسخ والتدوين وتجارة المخطوطات والكتب - كما يدلّ عليه اسمه - كان منذ حداثته شديد الاهتمام بآثار المدينة التي بناها الفينيقيون قبل ثلاثة آلاف عام على الشاطئ، قبل أن ينقلها المماليك إلى الداخل حول القلعة، في أعقاب هزيمة الصليبيين والتخوّف من عودتهم من طريق البحر، وهي زاخرة بالآثار المتراكمة،

خصوصًا من الحقب البيزنطية والعربية والصليبية والمملوكية والعثمانية، على رغم غلبة الطابع المملوكي عليها. وقد كوّن الورّاق بنفسه ثقافة واسعة حول هذه الآثار، ووضع العديد من المؤلّفات التاريخية والسياحية عنها، بحيث أضحى مرجعًا مرموقًا فيها، لما يتحلّى به من معرفة وانفتاح وموضوعية. كما بذل جهدًا مضنيًا لتعلّم اللغة الفرنسية، ساعده في ذلك تلامذة «معهد دو لاسالّ» حين كان قائمًا على طرف المدينة القديمة قبل بيعه وهدمه. وقد مكّنه ذلك من العمل بين وقتٍ وآخر كدليل سياحي موثوق به. ويتوزّع نشاطه بين الكتابة وإلقاء المحاضرات ومرافقة البعثات السياحية حين يتوافر له الوقت، علمًا بأن السيّاح خفّ عددهم كثيرًا في الآونة الأخيرة.

أما جلال الكاشف فهو متخصّص في الأدب الكلاسيكي وينظم الشعر على الطريقة العموديّة مثله مثل العديد من شعراء المدينة الذين لا صلة لهم قطّ بقصيدة النثر وبالأدب الحديث، ولا يزال الزمن متوقّفًا معهم عند لاميّة ابن الورديّ. لكن ما يميّز الكاشف عنهم أنه سافر إلى مدريد لمتابعة دراسته العليا، فبذل الكثير من الجهد والوقت للتأقلم مع حياته الجديدة، مبطئًا تحصيله العلمي، ثم صارفًا النظر عنه بعدما عشق فتاة اسبانية واقترن بها. لكن زواجهما لم يدم طويلًا إذ انفصلا بعد ستة أشهر، وقامتْ قطيعة كاملة بينهما. ولم يلبث الكاشف أن

عاد إلى وطنه. مع مرور الزمن اشتدّ حنينه أكثر فأكثر إلى مدريد التي باتت هي فردوسه المفقود. وكم أنّب نفسه، في قرارته وفي العلن أيضًا، على مغادرتها. ومن كثرة حضور عوالم إسبانيا في أحاديثه، لُقّب بـ«ابن حزم»، صاحب «طوق الحمامة في الألفة والأُلاف». وبعد وفاة والده، عمد الكاشف إلى تحويل المتجر الكبير الذي ورثه عنه في إحدى الباحات المحاذية لسوق العطّارين، «صالة شاي» أنيقة أطلق عليها اسم «مقهى غرناطة»، كان هو المقهى المختلط الوحيد في المدينة القديمة، كون المقاهي الأخرى مقتصرة على الرجال. والمقهى، المزيّنة جدرانه برسوم ولوحات مدريديّة وأندلسيّة، بات مقصدًا للسيّاح الأجانب الذين يرتادون المدينة القديمة، خصوصًا الإسبان منهم. ويقيم الكاشف بين وقتٍ وآخر في «مقهى غرناطة» حفلات موسيقية وغنائية يمتزج فيها أحيانًا الطرب الشرقي بأجواء الفلامنكو.

فمن يمكن أن يخطف مثل هذين الرجلين ويقتلهما؟ تساءلتْ رانيا. إنه لأمرٌ يصدم العقل ويعصى على الفهم. وحيث تختفي الحقيقة تسري الشائعات، التي تنطلق في صورة عفوية، أو بمبادرة القتلة للتعمية والإرباك، وغالبًا ما تستند إلى مُعطى ما موجود في الواقع كي تكتسب الصدقية وسرعة الانتشار. هكذا عمّت المدينة حول مقتل الورّاق والكاشف

شائعتان غالبتان. الأولى تستند إلى تواصلهما مع السيّاح الأجانب الذين يرتادون المدينة القديمة، لتفسير مقتلهما بارتباطهما بأجهزة مخابرات خارجية انتهى بهما لأسباب مجهولة إلى هذا المصير. وهي إهانة بالغة لكرامة الرجلين، وتشويه بائس لصورتهما، وهما أبعد الناس عن ذلك كلّه. والثانية تربط مقتلهما بجهات دينية متطرّفة، كون الورّاق، في بحثه التاريخي عن آثار المدينة وفي كتبه ومحاضراته، لا يحصر الأمور في التراث العربي والمملوكي والعثماني، بل يُشرِك فيها التراثَين البيزنطي والصليبي، وكون الكاشف أنشأ مقهى مختلطًا غير مرغوب فيه في المدينة القديمة، ترتاده فوق ذلك النساء الأجنبيات، وتُقام فيه حفلات طرب. لكن هذه الشائعة بدورها لا صحّة لها، إذ إنّ الورّاق والكاشف على علاقة طيّبة بالناس بكلّ اتّجاهاتهم، ولم يسبق أن انتقدهما أو تذمّر منهما أو هدّدهما أحدٌ طوال حياتهما.

حين عدتُ إلى غرفتي لم يكن لديّ إلّا تفسير واحد: الطاغية. لا يساورني أيّ شك في أن يده امتدّت الآن بقوّة إلى المدينة، وإنّ الآتي أعظم.

## - ١٣ -

في الصباح المبكر استدعاني آمر السجن وفاجأني بإبلاغي أن التحقيق معي سيبدأ اليوم، وأنه عليَّ انتظار الشخص أو الأشخاص المولجين ذلك، الذين قد يحضرون في أيّ وقت. قبل إعادتي إلى غرفتي، أفهمني أنه بنتيجة التحقيقات، سيتمّ إمّا تخلية سبيلي وإما إحالتي على المحاكمة، فأبقى حينئذٍ في «حصن الميناء»، لكن ليس في غرفة بل في إحدى الزنزانات السفلى، أو يجري نقلي إلى سجن آخر. شعرتُ من نظرته ومن خفوت صوته أنّه لم يكن ملزمًا هذا الإيضاح وهو لا يُقدِم عليه عادةً، كأنّه يعبّر به عن تعاطفٍ خفيّ ما معي.

أفرحني هذا الخبر وأثار قلقي وارتباكي في آنٍ واحد.

كأنّي بعد هذه الأشهر الطوال التي أمضيتها في «حصن الميناء»، اعتدتُ المكان وحياتي فيه، بين الصمت وإيقاعات البحر والكوّتين الكبيرتين المستديرتين، وانتظار حضور والدتي ورانيا كلّ أسبوع. وجدتُ نفسي أمام المجهول من جديد، مثل ليلة اعتقالي. قلت لنفسي: لماذا أخشى التحقيق، فأنا لم أفعل شيئًا أُلام أو أُحاسب عليه، والتحقيق الذي كنتُ أتمنّاه وأرتاب عميقًا من عدم حدوثه، لا بد أن يكون طريقي الوحيد إلى الحرّية، فلماذا القلق؟ لكنّي بقيتُ متململًا، مضطربًا، طوال الوقت، مركّزًا انتباهي على كلّ صوت يقترب من غرفتي، غارقًا في خضمّ الأفكار والهواجس المتدافعة بلا هوادة في داخلي.

كان يومًا من أطول أيام حياتي. مرّ قبل الظهر ثم بعده من دون أن يحضر أحد. لكني سمعتُ وقت المغيب وقع خطى تقترب من غرفتي ثم طرقًا خفيفًا على الباب، دخل بعدها أحد الحرّاس وهو يحمل مزهريّة نحيفة شفّافة فيها وردة حمراء طويلة الجزع، وضعها على طاولتي بعدما حيّاني بأدب، ثم أقفل راجعًا من دون أن يقول لي شيئًا. لم أفهم ما يحدث. من قدّم إليَّ هذه المزهريّة ولماذا؟ لكن تساؤلي لم يطل، إذ طُرِق بابي من جديد بعد دقائق قليلة. قلتُ في نفسي: «وصل المحقّق». لكن بدلًا من أن يدخل رجلٌ عسكريّ اللباس،

متجهّم الوجه، فوجئتُ بدخول امرأة في منتصف العمر، طويلة القامة، متينة البنية، حنطيّة البشرة، سوداء العينين والشعر، محتشمة اللباس، لا تخلو من رونق، تحمل بيسارها مغلّفًا كبيرًا، خُيِّل إليَّ أني رأيتها من قبل. عرّفتْ عن نفسها بأنّها «الرائدة هَناء»، ثمّ سلّمتْ عليَّ يدًا بيد، قائلةً بابتسامة ملتبسة: «مساء الخير يا حامل الوردة الأرجوانيّة!». نظرتُ إليها مذهولًا وقد أدركتُ فورًا سبب اعتقالي. أضافتْ: «ألم تعرفني؟ لقد شربنا القهوة معًا في مقهى «لو ديبار» قبالة بركة سان ميشال في باريس قبل عشرة أعوام». قبل أن أجيب، وضعت المرأة المغلّف الذي تحمله على طاولتي وقالت: «أراكَ بعد غد، في مثل هذا الوقت»، ثمّ رحلتْ بهدوء. لكنها لم تلبث أن عادتْ لإبلاغي ما يأتي: «حذار أن يعرف أحد بما جرى الليلة، أو بأيّ تفصيل من مضمون التحقيق، لأن ذلك يشكّل خطرًا بالغًا عليه».

لا يمكنني وصف الصدمة التي أصابتني بعد مغادرتها وأنا جالسٌ أمام المغلّف المغلق. كأن السماء سقطتْ على رأسي. استعدتُ مرارًا جملتها المقتضبة التي تكشف كلّ سرّ اعتقالي: «مساء الخير يا حامل الوردة الأرجوانيّة!»، ووجدتني في بحر هائج من الأسئلة التي لا إجابة لديّ عنها وأنا وحيد، معزول، في هذه الغرفة الخالية من النوافذ، المحاطة بظلمتَي السجن

والليل. كان يكفي أن تتفوّه المرأة بهذه الجملة القصيرة، خلال مرورها الخاطف في غرفتي، حتى تنقلب حياتي وتوقّعاتي في لحظة واحدة رأسًا على عقب. لم يعد لي أمل في الخروج إلى الحريّة، وبتّ أمام سرداب طويل مُعتِم لا أدري ما فيه من مفاجآت وأهوال، ولا أدرك نهايته.

لا حاجة لي لفتح المغلّف لأعرف ما فيه. فهو يحوي بالتأكيد صورًا عن مجموعة الرسائل التي بعثتُ بها إلى آنّا قبل سنوات، إثر عودتي إلى بلادي، وهي مكتوبة باللغة الفرنسية بخطّ يدي، وموقّعة على سبيل الحذر والتمويه باسم «حامل الوردة الأرجوانيّة». وقد فتحتُ المغلّف ووجدتُ ما كنتُ أتوقّعه. فأنا، بعد عودتي، تبادلتُ الكثير من الرسائل مع آنّا قبل أن يفقد الاتّصال أحدنا بالآخر. تتضمّن رسائلي أخبارًا وأوصافًا ومشاعر وأفكارًا حول أمورٍ لا حصر لها، منها الشخصيّ والعامّ، ومنها ما يتناول على نحو دقيق ما كان ينتابني من مخاوف وهواجس وتحليلات حول تسرّب شبح الاستبداد إلى بلادنا، وما يُحدثه من خلل مرئي في المجتمع واضطراب خفيّ في النفوس. ومع أني لم أكن أتوقّع، ولا في أغرب أحلامي، أن تصل هذه الرسائل يومًا إلى جهاز الطاغية - وإلّا لما كنتُ أشرتُ إليه وإلى نظامه إطلاقًا في أيٍّ منها - فقد عمدتُ، إمعانًا منّي في الحيطة، إلى عدم توقيعها باسمي، بل بعبارة «حامل

الوردة الأرجوانيّة». و«حامل الوردة» هو عنوان لوحة كانت معلّقة في صدر شقّتي أثناء إقامتي في مدينة السين، وقد أشرتُ اليها في كتابات سابقة. وهي تمثّل شخصًا متّشحًا بالسواد، على وجهه قناعٌ أبيض خالٍ من التعبير، يحمل بيده اليمنى الموضوعة في قفاز أبيض مخرّم بعناية، وردةً أرجوانيّة، كأنّه يقدّمها إلى الناظر إليه. كان يستحيل التكهّن ما إذا كان حامل الوردة رجلًا أم امرأة، شابًّا أم كهلًا، وما الذي يدور في خلده. كان يحدّق فيكَ هكذا طوال الوقت مقدّمًا إليكَ وردته، محتفظًا بكامل سرّه، مُشيعًا حوله جوًّا من السحر والسكينة.

في خضمّ التكهّنات التي تضجّ في داخلي وتمنعني من النوم ولو للحظة، أسأل ذاتي: كيف وقعتْ رسائلي إلى آنّا في قبضة جهاز الطاغية؟ لا أعتقد أنّ أحدًا اعترضها وهي في طريقها إلى الخارج، لأنها وصلتْ كلّها بلا استثناء إلى آنّا. هل يكون الجهاز فتحها وصوّرها ثم أعاد غلقها في كلّ مرّة بعناية بالغة؟ لا أعتقد ذلك، لأن سطوة الطاغية لم تكن توغّلتْ آنذاك إلى هذا القدر في مسالك حياتنا. لكن مَن يدري أيّ وضع كان عليه البريد الجوّي حقًّا في حينه؟ أم تُراها آنّا التي سرّبتْ هذه الرسائل بطريقة ما إلى جهاز الطاغية؟ من رابع المستحيلات أن تفعل ذلك. من يزوّدني في ظلمتي ببصيص نور ضئيلًا؟ من يبلسم بإجابةٍ ما جراح نفسي؟

## - ١٤ -

كان اليوم موعدي المعهود مع والدتي. كما في كلّ مرّة غمرتني محبّتها العميقة، الخالية من التعبير، وأولاني لقاؤها، على قلّة ما فيه من كلام، قوّة وثقة بالنفس كم أنا في حاجةٍ إليهما. فعلتُ كلّ ما في وسعي لأخفي عنها اضطرابي. مع ذلك، سألتْني بخفر إذا كان من أمر يقلقني. سألتْني أيضًا، كما في معظم الأحيان، إذا عرفتُ شيئًا عن بدء التحقيق، فأجبتها بالنفي.

غريبٌ أن أنتظر بهذه اللهفة موعدي المقبل مع المحقِّقة هناء. لقد أضحتْ هذه المرأة المجهولة سبيلي الأوحد إلى المعرفة، معرفة ما حدث لي في الماضي وما سيواجهني من مصير، بقدر ما ترغب هي كشفه، لا أدري. لكن لا مصدر لي سواها. فقد فقدتُ الاتّصال بآنّا، كما أني لا أستطيع الإيحاء

بأيّ شيء لأمّي أو لرانيا، خوفًا على حياتهما، إضافةً الى انفصالي في سجني عن كل معارفي. فعلتُ كل ما في وسعي لأستعيد بوضوح تامّ لقائي هناء - لا أعلم إذا كان هو اسمها آنذاك - قبل عشرة أعوام في مقهى «لو ديبار» في باريس، علّني أجد فيه إشارةً ما تُرشدني. لم نكن وحدنا، بل كان موعدي أساسًا مع رجل كنت أعرفه في حينه وأتتْ هي برفقته. من زمان لم أعد أعلم شيئًا عن ذلك الرجل الذي كنتُ أسمّيه بيني وبين نفسي «الانطاكي»، وقد غاب عني الآن اسمه الحقيقي، لكنّي أتذكّر بقوّة وجهه وشخصه لفرادتهما، كما أتذكّر الحديث الذي دار بيننا نحن الثلاثة في ذلك اللقاء. كان «الانطاكي» من رجال الصحافة المشرقيين الكُثُر الذين قادتهم الحروب والفتن وسطوة الاستبداد - وأحيانًا مصالحه - كما قادتْ جرائدهم ومجلّاتهم، إلى مدينة السين. ومع أني كنتُ أعمل، ولو من بعيد، في هذا الوسط، فأكتب مقالًا أسبوعيًّا لإحدى المجلّات عن الأحداث الثقافية في أوروبا، فقد كنتُ أختصر بأدب، العلاقات والاحتفالات والمناقشات، ملتزمًا عالمي الخاص، عالم المدن القديمة والطبيعة والزمن البطيء والأسفار والحدائق والرسوم وصالات الشاي والمقاهي وسائر الأمكنة التي أحبّها، والأشخاص القلائل الموصول بهم، و«الانطاكي» ليس منهم.

كان «الانطاكي» مختلفًا، فريدًا من نوعه، لافتًا في شكله وحضوره. كان آنذاك في أواسط الخمسينات من العمر، يزيدني كما يزيد المرأة التي كانت برفقته بنحو عشرين عامًا. كان متوسّط القدّ، مربوع القامة، بسيط الثياب وأنيقها على خفوتٍ في الألوان، ذا وجه واسع، مستدير، ممتلئ، كثير الهدوء، تقاطيعه كبيرة وبالغة الوضوح والانسجام، كأنها منحوتة نحتًا، مع شعر أسود أملس، وبشرة نقيّة، مائلة إلى السمرة الفاتحة. كان ثمّة ثقلٌ في أجفانه يبقيها نصف مُغلقة، بحيث يُخيّل إلى ناظره أنّه شبه نائم على الدوام، مع ابتسامة خفيفة ترتسم أحيانًا على شفتيه، تنطوي على الرضى المشوب بشيءٍ من الالتباس، وبشيءٍ من السخرية الخجولة الشبيهة بسخرية الأطفال. كان شكله يوحي بأنه متحدّر من سلالة نبيلة عريقة، ويُذكّر في صورة ما بتماثيل بعض الآلهة السومريين والبابليين. كان وجهه بمثابة قناع طبيعي مُطبق، يستحيل سبر أغواره، ويتعذّر إدراك ما يخفيه من مشاعر وأفكار ورغبات. كما كان «الانطاكي» قليل الكلام، مبهم المقاصد في أحيان كثيرة، لا يتوخّى الإيضاح. لم يكن شرّيرًا قطّ بل كثير الأسرار، وهو الأمر الوحيد الذي لا يستطيع قناعه إخفاءه. كلّ ما عرفته عنه في لقاءاتي المتباعدة معه، أنه صحافي، عازب، ولِد في انطاكيا في لواء الإسكندرون، وفقًا لتعبيره، وعاش وعمل في

عمّان، ودمشق، وبيروت، والقاهرة، ونيقوسيا، ولندن، وأنه يجيد، فضلًا عن العربية، التركية والانكليزية، ويرغب خلال وجوده في باريس تعلّم اللغة الفرنسية. كان يبدو أوّل ذلك المساء وهو جالس قبالتي في مقهى «لو ديبار»، بين روّاد المقهى الكُثُر من رجال ونساء من مختلف الأشكال والأعمار، منهم الوحيدون، والعشّاق، والقرّاء، والمنتظرون، والشاردو الفكر، والقلِقون، وإزاء سيل العابرين في الخارج، المندفعين بلا توقّف نحو مدخل محطة سان ميشال لقطار الأنفاق بعد يوم عمل مُضنٍ، كأنه هابط من نجم آخر، وآتٍ من عصر بعيد ليحطّ هنا، مثله مثل نصب شارلمان عن يميننا، أو نصب هنري الرابع عن يسارنا، أو الساعة الشمسيّة المحفورة على برج القصر الملكي القديم عند الرصيف الآخر للنهر، لكن من حضارة أخرى. سألتُه إذا كان يحبّ باريس. أجابني وقد ارتسمت الابتسامة نفسها على شفتيه، أنه لا يشعر قطّ بالمكان الذي يكون فيه، وأنه سيّان عنده إذا أقام في عمّان أم نيويورك أم لندن أم باريس، أم أيّ مدينة أخرى في العالم، فهو لا ينتبه إلى ما يحيط به ولا يأبه له. حينئذٍ أدركتُ كم نحن مختلفان. فأنا في عالم، و«الانطاكي» في عالم آخر.

أذكر أن ما لفتني في هناء التي كانت جالسة إلى جانبه، هو نظرها الدائم الحراك. وهي تدخّلتْ خلال اللقاء لتروي لنا

قصّة مفجعة، بقيتُ أهجس بها طويلًا. انطلقتْ من شاب وفتاة جالسين في المقهى على مقربة منّا وهما يتبادلان القبل. قالتْ كم المجتمعات متباعدة ومختلفٌ بعضها عن بعض على نحو لا يُصدَّق. ثمّ أوردتْ قصة أخبرتْها بها صديقة تركيّة مقيمة في باريس، حدثتْ قبل سنوات في قرية مجاورة لقريتها في أحد أرياف الأناضول. ذكرتْ أن أمًّا كان لها ولدان، صبيّ هو البكر وبنت، ربّتهما وحدها لوفاة أبيهما مبكرًا، وكرّستْ حياتها لهما فلم تتزوّج من جديد، وأجهدتْ نفسها كثيرًا لتؤمّن لهما حياة كريمة. ولمّا كبر الولدان، أحبّت الابنة رجلًا من بعيد، ثم التقتْ به لحظةً واحدة في الشارع، حيث أعطاها هدية رمزيّة صغيرة وأبلغها أنّه سيزور عائلتها في الأيام المقبلة لطلب يدها. عرف أعمامها وأولادهم بالأمر واعتبروا اللقاء العابر في مكانٍ عام، على مرأى من أهل القرية، إهانة خطيرة لهم وتلويثًا لشرفهم ألحقته بهم ابنة أخيهم، لا يمكن غسله إلّا بدم الفتاة، وإن كان الرجل جادًّا في الاقتران بها. اجتمعوا وقرّروا هدر دمها وتكليف شقيقها الوحيد تنفيذ الحكم. لم تكن الصبيّة عارفة بما يدور حولها ولا دارية أنها اقترفتْ إثمًا. رُوِّع الشاب حين طُلب منه قتل أخته، وبينهما، هما ووالدتهما، محبّة عميقة، وكلٌّ من الثلاثة هو الأعزّ في الدنيا عند الآخر. فاضطرّتِ الأمّ، يا للهول، ان تُسلّم ابنها المسدس بيدها،

وتتوسّل إليه ليفعل، إنقاذًا لشرف العائلة. بعد طول تردّد، صعد إلى غرفة أخته وهو في اضطراب شديد، فدخل عليها ووجدها جالسة تقرأ. رحّبت به أجمل ترحيب وهي غير عارفة بمقصده، لكنّه ما لبث أن انفجر في البكاء وهو ممسكٌ بالمسدّس، فأدركتْ أخته حقيقة الأمر، وبدلًا من أن تصرخ أو تحاول الهرب، أشفقتْ كثيرًا على أخيها وطلبتْ هي أيضًا منه أن يفعل، فأطلق رصاصة على رأسها وخرج مرعوبًا، ليُطلق رصاصة أخرى على رأسه بعد شهر ذاق خلاله أمرّ العذاب.

ساد بيننا صمتٌ عميق قطعه «الانطاكي» بعد دقائق مُدليًا برأيٍ لا يخلو كالعادة من الالتباس. قال إنه ضدّ قتل أيّ إنسان مهما كان ذنبه، فكيف بهذه الصبيّة الطاهرة البريئة؟ لكنّنا إذا نظرنا إلى المسألة بموضوعية، أضاف، فليس من حلّ وسط في ذلك. فإمّا أن تبقى المرأة ضمن التقاليد وإما أن تخرج عنها. فإذا خرجتْ خطوة واحدة، فلن تعود الأمور إلى الوراء قطّ، وستصل لا محالة يومًا إلى ما هي عليه هذه الفتاة التي تتبادل القُبَل مع صديقها أمامنا في هذا المقهى، وإلى ما انتهتْ إليه المرأة الغربية في الأفلام الإباحيّة. إنها مسألة خيار، في هذا الاتجاه أو ذاك، قال منهيًا كلامه، غارقًا من جديد في صمته. كانت تلك المرّة الأولى والأخيرة التي رأيتُ فيها هناء، والمرّة الأخيرة التي التقيتُ فيها «الانطاكي».

## - ١٥ -

حضرت الرائدة اليوم في الموعد المحدّد. التقينا في غرفة مخصّصة للتحقيق تحوي نافذة مُشرِفة على البحر. جلسنا وجهًا لوجه حول طاولة كبيرة، وقد وجدتُ نفسي قبالة النافذة التي أفتقدها على نحوٍ لا يوصف. لا أدري لماذا خفّ اضطرابي. تُرى، ألأني استوعبتُ الصدمة الأولى، أم لأني قلتُ في قرارتي إن الرسائل التي كتبتُها، على خطورتها، بقيتْ محصورة في الإطار الشخصي بيني وبين آنّا ولم تخرج إلى العلن، أم لأن استعادتي لقائي بهناء على ضفّة نهر السين خلق ألفةً ما في نفسي بيني وبينها، وأم لأني أُطمئِن ذاتي بالتعلّق بحبال الوهم؟ لستُ أدري. بقينا دقائق ينظر أحدنا الى الآخر من دون كلام، عينا المرأة في حراك دائم، كما في لقاء

المقهى. ثمّ قطعتْ هي الصمت قائلةً: «هل تذكّرتَ أين رأيتني من قبل؟». أجبتها «أجل». لم تسأل المزيد عن ذلك اللقاء، ولا أنا تحدّثتُ عنه. أضافتْ بعد قليل: «هل أنتَ مُدرِك خطورة التهم التي يُمكن أن تُوجَّه إليك؟». أجبتها: «إنها في نهاية الأمر مجرّد رسائل بين رجل وامرأة، لا تعني أحدًا سواهما، ولم يتمّ نشرها في أيّ مكان لتصبح موضع اتّهام. على العكس من ذلك، ثمّة اعتداء في هذا الأمر على خصوصيّات الناس التي يحميها القانون». ارتسمتْ على شفتيها ابتسامة عريضة كادتْ تتحوّل ضحكةً عالية وقالتْ: «هل تظنَّ نفسكَ أمام محكمة باريسيّة؟».

حين استعدتُ لقاء مقهى «لو ديبار» سعيًا وراء إضاءةٍ ما على هذه المرأة، خاب أملي لأنّي لم أجد فيه شيئًا من ذلك. لكنّي وأنا جالسٌ الآن أمامها، أدركتُ خطأ استنتاجي. عرفتُ وأنا أنظر إليها، أن القصّة الرهيبة التي أخبرتْنا بها ذلك المساء، قبل عقدٍ من الزمن، هي مفتاح فهم شخصها ومسارها. أعتقد أن ما نسَبتْه إلى صديقة تركيّة من برّ الأناضول مقيمة في باريس، هو قصّتها وقصّة عائلتها وبيئتها. فما هو مرسومٌ في عينيها الواسعتين السوداوين، وعلى وجهها، وعلى حركة نظرها ويديها، وعلى صدرها المعلّقة عليه جهة القلب أيقونة فضّية صغيرة تحمل صورة الطاغية، وأكثر من ذلك أيضًا،

طريقتها في الكلام والصمت، وهذا الشعور الخاصّ، الغامض، المنبعث من حضورها، تعبّر كلّها عن رؤية واحدة، راسخة، للحياة البشرية، قائمة على ثنائيّة مطلقة لا هوادة فيها، هي ثنائية القاتل والمقتول، والراعب والمرعوب، والجلّاد والضحيّة. فإمّا تكون هذا، وإما تكون ذاك، وما من خيار ثالث بينهما أو خارجهما قطّ في أي مكان أو زمان. وهي لم تكتسب هذه الثنائية الراسخة فيها عبر انتمائها إلى العسكر السرّي للحزب فقط. فلا بد أن تكون الرؤية القاسية، المغلقة، الوحيدة الجانب، للوجود، التي يختصرها العنف، مقيمة فيها من قبل، ومتأصّلة في أرض ولادتها وطفولتها، حيث تُقتَل المرأة لأنّها تبادلتْ بضع كلمات في مكانٍ عام مع رجل يحبّها حبًّا عذريًّا ويودّ طلب يدها. فانتماؤها إلى تنظيم الطاغية، الذي حملتْها إليه ظروف لا أدركها، ينسجم بصورة طبيعية مع ذلك. كانتْ تبدو هذه المرأة، في بعدها الواحد، كأنّها النقيض الأمثل للبحر الممتدّ عبر النافذة وراءها، بما يزخر به من تموّجات، وألوان، وأصوات، وأصداء، وتحوّلات، وعوالم، ووعود، وأحلام. مثلما هي النقيض الأمثل لامرأة مثل رانيا أو آنّا، الشبيهتين بالبحر. لكن كما أرثي أنا لحال هذه السيّدة الأربعينيّة - التي لا تخلو من جمال وذكاء - في تعبيرها البسيط، المُختصَر، عن الجهاز، فهي ترثي على الأرجح

بدورها لحالي، وتقول في ذاتها وهي تنظر إليَّ: «ما أتعسه، فكل مؤلّفاته، ومقالاته، وعلومه، وأسفاره، وصداقاته، وأحداث حياته، لا تساوي شيئًا أمام نفرٍ صغير واحد من الجهاز، يسحبه ليلًا من بيته إلى هذا السجن، من دون أن يعرف السبب، أو نفر واحد آخر ينقله من هنا إلى مكان مجهول يختفي فيه، حيًّا أو ميتًا، إلى الأبد». فالجهاز، ضمن رؤيتها، هو محرّك العالم، وصانع القدر، وهو بكلّ شيء عليم، وعلى كلّ شيء قدير. وقد رأتْ بأمّ العين خلال سنوات طويلة فاعليته العجيبة في كشف الخفايا، واختَراق الأماكن، وافتعال الأحداث، وتزوير الوقائع، وتبرير الأفعال، وفي الإفساد، والتفجير، والاعتقال، والتعذيب، والإخفاء، والقتل الفردي، والقتل الجماعي، وفي إرساء الرعب في أعماق كلّ حيّ، وهو لم يفشل في مهمّة قام بها، ولم يخسر صراعًا خاضه، ولم تظهرالحقيقة حول أيٍّ من أفعاله المروّعة، بحيث بات يرتدي في نظرها صفة سحريّة أو طبيعة إلهيّة. فربّما أضحت الرائدة هناء تعتقد، بأن الجهاز يقف وراء كل ما يحدُث، ليس في الحياة العامّة، بل الخاصّة أيضًا، وفي مواجهة الزمن، وفي مصير الأجساد والأنفس. كأنّها تستغرب في مكانٍ ما في داخلها، أن يمرض أحدٌ من دون علمه، أو أن يطال الموت أحدًا من دون قرارٍ منه.

لكن على رغم إيمانها اللامحدود بالجهاز، الأشبه بعقيدة دينيّة لا تعتريها ذرّة شكّ، هي تعاني من نقطة الضعف نفسها التي يعاني منها نظام الطاغية الهائل التماسك: يكفي أن يسقط حجر واحد منه حتى ينهار البناء. لذلك لا يستقرّ نظر هناء على حال، فهو في دوران دائم وفي بحث لا يكلّ، كأنّ صاحبته تطارد في لاوعيها على الدوام شبحًا ما، ليس هو إلّا مُسقِط الحجر.

# - ١٦ -

توالت تحقيقات الرائدة معي بوتيرة متسارعة. كانت تستدعيني كلّ يوم تقريبًا، على مدى أسبوعين، فلم تترك سؤالًا لم تطرحه عليّ. كانت تقوم بكلّ المهامّ بنفسها من دون مساعدة أحد، تسأل وتسجّل وتدوّن وتلخّص في جلسات طويلة، فلا تتأفّف ولا تغضب ولا تفقد الصبر. وكانت تستعيد الأمور في الجلسة التالية من دون أن تنسى أيّ تفصيل. كنتُ أخضع لذلك كلّه بسأم هائل، أحرص على إخفائه، قائلًا لنفسي: «لحسن حظّي، أو لسبب آخر لا أُدركه، لم يتخلّل التحقيق معي أيّ عنف أو أية إهانة حتى الآن». في ختام الجلسة الأخيرة، ودّعتني بالطريقة نفسها. سلّمتْ عليَّ باليد قائلةً: «وداعًا يا حامل الوردة الأرجوانية!»، وأبلغتني أنها

سترفع التحقيقات إلى المرجع القضائي الذي كلّفها بها، وهو الذي سيحدّد التهم التي ستُوجَّه إليّ، ومن الآن إلى حينه سأبقى هنا في الغرفة عينها ولن أُنقَل الى مكان آخر.

كم أنا بحاجة إلى الوقت لأستوعبَ كلّ ما سمعتُه وشعرتُ به واكتشفتُه خلال هذا التحقيق. لا شكّ في أني مرتاحٌ لبقائي هنا، فلم أُنقَل إلى إحدى الزنزانات السفلى أو إلى سجن آخر من مجاهل معتقلات الطاغية. لكنّ ذلك كلّه موقّت وهشّ وعرضة للتحوّل في كلّ وقت. إضافةً إليه، توضّحتْ لي في سلسلة لقاءاتي الرائدة هناء معطيات مُقلِقة ومحزنة للغاية. جهة القلق، تأكّد لي في صورة نهائيّة أنّي لن أعود على الأرجح إلى الحريّة، وأن سنوات طويلة من السجن والإخفاء تنتظرني، وأن ما عشته حتى الآن في «حصن الميناء» ليس إلّا المقدّمة والبداية. وجهة الحزن، أدركتُ أنّ جهاز الطاغية كان يراقبني عن كثب خلال السنوات الأخيرة من إقامتي في مدينة السين، فباتتْ ذكرياتي ومشاهداتي وأحلامي ملوّثة بحضوره الخفيّ فيها، بينما كنتُ أراها على الدوام وأستعيدها في ذاتي مساحةً ناصعة، مضيئة من الحريّة والجماليّة، كم أعانتني على تحمّل وطأة الحياة وقسوة الواقع بعد عودتي. كما ولج الجهاز عبر رسائلي، وهو الأمر الأشدّ قسوةً وإيلامًا، إلى عمق حياتي الداخلية، حيث حدائقي السرّية

التي لم ترَها عينٌ من قبل، وهي أغلى ما عندي. كما تيقّنتُ أيضًا، من مؤشّرات عديدة، أن المحقّقة هناء تنتمي إلى الدائرة الضيّقة المحيطة بالطاغية، وهي على الأرجح على اتّصال شخصي به.

لا شكّ في أن جهاز الطاغية بدأ يهتمّ بي قبل نحو خمس سنوات من عودتي إلى بلادي. حدث في ذلك الوقت أن الصحف المهاجرة أخذت تعاني أزمات ماليّة حادّة أدّتْ إلى غلق أبوابها الواحدة تلو الأخرى، فوجد العشرات من الكتّاب والصحافيين أنفسهم فجأةً بلا عمل، غير قادرين على تأمين حاجات حياتهم في مجتمع عالي الكلفة. وحدها المنشورات المدعومة من نظام الطاغية كانتْ لها القدرة على الاستمرار، خصوصًا صحيفة «الأمل» اليومية، ومجلّة «مرآة الشرق» الأسبوعية. هكذا بدأت تتقاطر إليهما أفواج الصحافيين المهاجرين الذين فقدوا وظائفهم، منهم من أتى صاغرًا وقد سُدّت في وجهه السبل، ومنهم من هو غير مكترث أساسًا بهويّة المؤسّسة التي يعمل فيها.

استطعتُ، من جهتي، الصمود بضعة أشهر مدعومًا من آنّا، وقد كنّا نعيش معًا في شقّة صغيرة في حي موبير تُشرف عن بعد على جزيرة سان لويس. لكن حدث أن فقدتْ آنّا هي

أيضًا عملها في «متحف الفن المعاصر»، فتراكمتْ علينا الصعوبات. كان صديقٌ لي ممّن وجدوا عملًا في مجلّة «مرآة الشرق» على دراية بوضعي. ورغم إدراكه رفضي الحاسم التعاون مع مؤسّسات الطاغية، وإن كانتْ مُغلّفةً بأسماء كتّاب معروفين، ومموّهة بطابعٍ من الموضوعية الزائفة، لم ييأس من محاولة إقناعي بصيغةٍ ما للكتابة في «مرآة الشرق»، توفّر لي الحدّ الأدنى من إمكان البقاء في هذه المدينة، التي يعرف كم أحبّها. قال لي إن الصفحات الأولى من المجلّة الأنيقة ستُخصَّص من الآن فصاعدًا كلّ أسبوع لرحلة مصوّرة إلى إحدى المدن التاريخية في أوروبا والعالم، وهو موضوع لا علاقة له بالسياسة قطّ، يمكنني أن أتناوله مرّتين في الشهر، وإن شئتُ فباسمٍ مستعار أيضًا أختاره أنا. وجدتُ العرض ملائمًا ودفعتني ظروفي الصعبة إلى قبوله.

بدأتُ الكتابة، فقدّمتُ خلال شهرين أربع رحلات تمّ نشرها في «مرآة الشرق» بتوقيع جمال داغر، تناولتُ فيها أربع مدن أحبّها حبًّا جمًّا، هي بروج وفلورنسا وسان مالو والبندقية، فلم يكن من حاجة لزيارتها، إذ إني أعرفها عن كثب وقد قصدتُها مرارًا في السنوات الأخيرة، وفي حوزتي يوميّات حيّة عنها استلهمتها، وصور كثيرة لها أخذتُها بنفسي. كان

للمقالات الأربعة وقعها الجيّد لدى نخبة من القرّاء، وقد تلقّت المجلة العديد من رسائل الاستحسان نشرتْ بعضها. سار كلّ شيء على ما يُرام إلى حين طلب مني صديقي الحضور إلى مقرّ المجلّة لقبض ثمن المقالات، وذلك مرّةً كلّ شهرين كما هو مقرَّر. وجدتُني حينئذٍ أمام حاجز مفاجئ في داخلي يستحيل عليَّ تخطّيه. فأنا لا أستطيع قبض ثمن المقالات الأربع. لقد حاولتُ جاهدًا إقناع نفسي بذلك، ما دمتُ أكتب باسمٍ مستعار، وأعالج موضوعات ثقافية وجمالية هي أبعد ما تكون عن السياسة، كما سعتْ آنّا جهدها لإقناعي هي أيضًا، لكن من دون نتيجة. كان هناك في عمق ذاتي رفضٌ مطلق لمدّ يدي إلى هذا المال، لا طاقة لي، مهما رغبتُ ومهما فعلتُ، على تجاوزه. أمرٌ يتخطّى وعيي وإرادتي. هكذا لم أقبض ثمن المقالات، وقرّرتُ التوقّف نهائيًّا عن الكتابة في «مرآة الشرق».

بعد أن اتّخذتُ قراري، سرتُ طويلًا على رصيف النهر، من جسر سوللي الى جسر ألكسندر الثالث غائصًا في أفكاري. عرفتُ أنّي لو قبضتُ هذا المبلغ من المال لتغيّرتْ علاقتي بذاتي على نحوٍ لا أستطيع احتماله. وأنّ هذا الصفاء الداخلي الذي تشيعه الحريّة في نفسي منذ حداثتي، والذي لم تتسرّب إليه شائبةٌ قطّ، هو كنزي الحقيقي، وهو الصفاء عينه الذي

يطبع نظرتي إلى ماضيَّ وإلى حاضري، وإلى الأشخاص والأشياء والمشاهد والأمكنة التي أهواها. وأني لو قبضتُ هذا المال لما عاد صفائي هو نفسه. فماذا يفيدني إن ربحتُ العالم وخسرتُ صفاء نفسي؟ كانت ستدخل إليّ مادّةٌ ثقيلة لا عهد لي بها، تضرب خفّة وجداني، وتعلق بكل ما يعبر فضائي من مشاعر وأفكار ورغبات وأحلام وصور، فكيف أعود أنا هو أنا؟ كما أدركتُ أن مال «مرآة الشرق» هو في العمق خيانةٌ لذكرى والدي، ولصورة والدتي، ولطفولتي، وللمُربّين الذين زوّدوني بالعلم في ذلك المعهد الذي لم يعد موجودًا اليوم ولا هم عادوا موجودين، وهو خيانةٌ لكلّ مَن عرفتُ وأحببتُ طوال حياتي. وأني لو قبضتُ هذا المال لاهتزّتْ علاقتي بالأسفار، وتخرّبتْ، ولما عدتُ أستقلّ القطار الذي أحبّه كثيرًا، بالانطلاقة والفرح نفسيهما، ولما عدتُ أتأمّل من نافذته، بالحرية والشغف نفسيهما، السهول النديّة، والقرى الماثلة على التلال وفي فسحة الحقول، والطيور العابرة فوق البحيرات ومجاري الأنهر، والغيوم الهاربة، والمطر الهاطل، والشمس المائلة إلى الغروب على مشارف المحيط، وجسد أنّا الراقد في هدأة تلك الغرفة في فندق «الملاك الأزرق» الصغير عند مرفأ شارلوريه؟ من كان سيحرّر هواء نفسي من هذا الثقل الملوّث؟ قلتُ في سرّي حين وصلتُ الى جسر

ألكسندر الثالث منهيًا مسيرتي، متنفّسًا عميقًا الصعداء كأنّ حملًا هائلًا انزاح عن كاهلي، قبل أن أعود أدراجي إلى البيت حيث وجدتُ آنّا في انتظاري.

## - ١٧ -

أتذكّر تمامًا الأيّام والأسابيع التي تلتْ. لم يمرّ الأمر بسهولة. استغربتْ إدارة «مرآة الشرق» أشدّ الاستغراب توقّفي عن الكتابة وعدم حضوري لقبض أجري، وطلب أربابها إيضاحات من صديقي، فلم يعرف بماذا يجيب. وجد نفسه بين لغزَين لا يفقه سرّهما، رفضي القاطع قبض المال المخصّص لي وأنا في أمسّ الحاجة إليه وعزوفي المفاجئ والنهائيّ عن الكتابة في المجلّة، من جهة، وإصرار إدارتها المتصاعد كلّ يوم، من جهة أخرى، على إقناعي بالعودة. ندم كثيرًا على دخوله في هذه المسألة، وأسرّ لي بأن إصرارهم الذي لا يكل على إعادتي، هو أمرٌ غريب ومحيِّر لا يجد له تفسيرًا. توالت الاتصالات والمحاولات بلا جدوى، ثمّ ثابر رئيس التحرير

على مكالمتي بالهاتف، وهو كاتب شهير يعتلي المنابر ويقيم الأمسيات الشعرية، ولا يجد حرجًا في تأمين الغطاء المعنوي لمجلّة تابعة لنظام الاستبداد لقاء رواتب وامتيازات كبيرة. عرض عليَّ مضاعفة أجري، ثم في اتصال آخر، طلب مني تحديد المبلغ الذي أريد، فهم موافقون مسبقًا عليه. واضطررتُ في النهاية إلى تغيير رقم هاتفي ووضعه على ما يُعرَف بـ«اللائحة الحمراء» كي لا يطّلع أحدٌ عليه، وباشرتُ البحث مع آنّا عن شقّة أخرى. أعتقد أنّ الجهاز بدأ منذ ذلك الحين مراقبتي.

خلال استجوابي، كانت المحقّقة تعود بين وقتٍ وآخر إلى تلك المرحلة. لمستُ في صورةٍ ما أنها، على رغم معرفتها، عبر رسائلي إلى آنّا، مدى توجّسي من نظام الطاغية ورفضي له، تشكّ في وجود أسباب محدّدة أكثر وراء قراري الحاسم آنذاك عدم الكتابة في «مرآة الشرق» - التي توقّفت الآن عن الصدور - وتهرّبي من قبض أجوري، على رغم العروض الخيالية التي قُدّمتْ إليَّ، مع أني نشرتُ أربع مقالات في المجلّة نفسها، فما الذي حدث؟ أجبتُها أني كنتُ في ذلك الحين منكبًّا على إنجاز أحد أعمالي الأدبية الذي ظهر في ما بعد بعنوان «يوميّات الضفة اليسرى»، وأدركتُ عبر التجربة أن كتابة تلك التحقيقات المصوّرة عن المدن الأوروبية ستأخذ

مني الكثير من الوقت. لا أعتقد أن جوابي أقنعها. لكن ما لفتني وأثار حيرتي هو أن يكون موقفي من تلك المجلّة لا يزال موضع اهتمام لدى الجهاز، بعد مضي هذا الزمن كلّه. ولمستُ من مؤشّرات عديدة أثناء التحقيق، أن موقفي من «مرآة الشرق» هو مسألة محورية في علاقة الجهاز بي، لم تنطوِ مع مرور الوقت. كأن ثمة متابعة من جهة رفيعة في النظام لهذا الأمر. وهذه المتابعة هي التي تُضيء ربما ذلك الإصرار الغريب، وتلك الإغراءات غير المعقولة، من أجل إعادتي إلى المجلّة في حينه، وهي التي تفسّر استمرار التقصّي عن هذا الشأن، اليوم أيضًا، بعد غلق المجلّة وبعد انقضاء أعوام طويلة على ذلك الحدث. مع أنه ليس بالحدث حقًا، وهو لا يمسّ النظام بشيء، ولا أهمية له قطّ في حساب السياسة والسلطة. فبأيّ مقياس تُرى ينظرون إليه؟

حاولتُ تذكّر ما تضمّنته تلك المقالات علّني أُدرِك ما أثار اهتمامهم. أذكر أنه في المقال الذي تحدّثتُ فيه عن رحلتي الى فلورنسا، لجأتُ إلى طريقة غير معهودة في هذا النوع من التحقيقات. أخبرتُ كيف نزلتُ في فندق من طريق المصادفة في المدينة القديمة. وعند الصباح، مررتُ أمام دارة عريقة مفتوحة للزوّار على مقربة من الفندق لم أكن أعرف ما هي، فدخلتُ إليها، وذُهِلتُ حين وقع نظري فورًا على لوحة

جدارية كبيرة أحبّها كثيرًا ومن زمان، عبر ما رأيته من صور عنها، هي «موكب الملوك المجوس» لبينوزّو غوزّولي، عائدة إلى منتصف القرن الخامس عشر. كانت مفاجأة مفرِحة لي للغاية أن أشاهد بأمّ العين هذه الجدارية، في هذا المكان الذي عرفتُ أنه قصر مديتشي - ريكّاردي، وأن تبدأ بها زيارتي للمدينة. قرّرتُ عند كتابتي المقالة أن أنتقل من هذه الواقعة لأعرض تاريخ فلورنسا وجغرافيتها وفنونها ورجالاتها ودورها المحوري في الخروج من القرون الوسطى وإطلاق النهضة الأوروبية، وعلاقة ذلك كلّه بحاضرها، فقط عبر تحليل لوحة «موكب الملوك المجوس».

لا أدري لماذا بهرتني هذه اللوحة مذ رأيتُ المرّة الأولى صورةً لها في أحد الكتب. لم أكن أعرف عنها شيئًا ولا عن مبدعها. إنّها متعة للنظر بمشهديتها الغنيّة، إذ تحوي نحو مئة شخص، منهم الأشراف على أحصنتهم الأصيلة، ومنهم المشاة والمرافقون، فضلًا عن الأشجار والطيور والغزلان وكلاب الصيد والرماح والسهام والهدايا وأحد القصور وأشياء عديدة أخرى. كانت الوجوه، على كثرتها، مرسومة بعناية بالغة بتقاطيعها وتعابيرها، بحيث يشكّل كلٌّ منها بورتريهًا في حدّ ذاته، كذلك وقفة الأشخاص وطلّتهم واتّجاه نظرهم، وموقع بعضهم من البعض الآخر. ومن عناصر الطبيعة، في طقسٍ

تراتبي بهيّ. وكان لباس الأشراف، وسائر الحاضرين، كما أسرجة الخيول وزينتها، دقيقة الصنع، كثيرة الأناقة، منسجمة التفاصيل والألوان، مطرّزة بعناية ومُرصّعة بالجواهر وفقًا لمقام أصحابها. كان يطغى على هذه اللوحة، المرسومة بموادّ نادرة وثمينة، الموشّاة بالذهب المتلألئ، اللون الزهريّ الغامق والأرجواني والأخضر الزيتي والأبيض الملطّف بالرمادي. وكان على رأس المسيرة أميرٌ متألّق، في مطلع الصبا، يتقدّم ببطء على جواده المطهّم، والكلّ يتبعه. كان هذا الموكب الغريب، الآتي بصمت لا أدري من أين، والمتّجه لا أدري إلى أين، ينطوي على إيقاع سحريّ، وعلى حضور لازمنيّ، كموكب انتصارٍ مذهّب ضد الموت.

ومع أن من المفترض أن يكون «موكب الملوك المجوس» متّجهًا من بلاد فارس إلى قرية بيت لحم، فلا شيء فيه يدلّ على ذلك قطّ، لا المكان ولا الوجوه ولا الثياب ولا أي مَعْلم آخر. فهو ينساب بين تلال توسكانا المحيطة بفلورنسا، وأشخاصه بمحيّاهم ولباسهم، هم من أبناء عصر الرسّام وبيئته، حتى هو حاضر بينهم ببورتريه دقيق له، وقد كَتب اسمه بحروف لطيفة على قبّعته الحمراء. ويعود بريق الذهب وتألّق الألوان في اللوحة الى إتقان غوزولي فن الصياغة والى تأثّره بفرا أنجيليكو. ما كان يجب ربما أن أعلم

عن هذه الجدارية أكثر من ذلك. فماذا سيبقى من سحر الانطباع الأوّل ومن روعة الاندهاش، حين أدرك المزيد من المعنى والتفسير؟ وماذا يفيدني أن أعرف أن هذه اللوحة وُضِعتْ بطلبٍ من آل مديتشي من أجل تخليد ذكراهم، وأن الأشخاص الأساسيين فيها، المرسومة وجوههم بواقعية وأمانة، هم أقطاب عائلة مديتشي وحلفاؤهم وكبار زوّارهم؟ فالمجوس الثلاثة هم لورانزو، أمير فلورنسا المديتشي الملقّب بالعظيم، وجوزيف الثاني بطريرك القسطنطينية، والأمبراطور يوحنا الثامن. ومن بين الوجوه البارزة الأخرى بيّيرو، والد الأمير، وكوزمو القديم، عميد العائلة، كذلك سيّدا مدينتي ريميني وميلانو، ومجموعة من أهل الفن والأدب الفلورنسيين، ورهط من زوّار العائلة من الأشراف البيزنطيين المرافقين للبطريرك وسواهم.

ما الذي يمكن أن يهمّ جهاز الطاغية في ذلك كلّه؟ وما الذي يهمّه من تحليلي هذه اللوحة لعرض ماضي فلورنسا وحاضرها؟ إلّا إذا كان «موكب الملوك المجوس» أوحى له، أو لمن حوله، برسم موكبٍ مماثلٍ ما، يتقدّمه هو على جواده، يحيط به وارثه وسائر أفراد عائلته، ثم أركان نظامه من رجال دنيا ودين، وكبار حلفائه في البلدان المجاورة، وهم يسيرون في ذكرى ولادته، أو وصوله إلى الحكم، أو لمناسبة أحد أعياد

نظامه، في إطارٍ طبيعي مستمَدّ من بيئته، وضمن مشهديّة باذخة اللباس والألوان، تُذكّر بأمجاد أل «كواتّريشنتو»، من يدري؟

حاولتُ كذلك استعادة ما كتبتُه آنذاك عن رحلتي إلى البندقية، باحثًا عمّا يمكن أن يلفت جهاز الطاغية فيها. طغتْ على مقالتي تلك، الأحاسيس والانطباعات الذاتية البحتة، وغابتْ عنها المعلومات المعهودة عن «ملكة البحار»، و»المدينة المهدّدة بالغرق»، أو عن الكتّاب والرسّامين والموسيقيين الكُثُر الذين زاروها وعشقوها وما دوّنوه عنها. أذكر أني تحدّثتُ عن المشاعر الثلاثة الأولى التي راودتني عند وصولي إليها من طريق البحر مطلع شهر تمّوز من ذلك العام: عالمها النائي، المعزول والفريد على رغم كونها في قلب أوروبا، الحنين المبهم والكآبة الغريبة المحيطان بها، والإحساس بما يشبه الإهمال وعدم الترميم اللذين يطبعان جدرانها وقد أدركتُ في ما بعد سرّهما.

عبّرتُ عن تلك المشاعر بصور وإيحاءات وتفاصيل، لا يمكن أحدًا من أفراد جهاز الطاغية أن يفقه الكثير منها، مثل الكلام عن شاعرية الأشخاص السابحين في الفضاء، المتحررين من جاذبية الأرض ومن ثقل أجسادهم ونفوسهم في لوحات القصر الدوقي، أو التوقّف عند المعاني الوجوديّة

التي تتخطّى ظاهرة الحرب في لوحات المعارك البحرية التي يمتزج فيها الأموات بالأحياء وهم مُصابون بالسهام وشاخصون إلى السماء، أو الإدراك أن إهمال الجدران - التي تحتوي دخائلها على الكنوز - هو في عمقه رفض لهاجس الصقل والترميم، وعدم اكتراث بفعل الزمن، وسأم أريستوقراطي من الكمال، وهناك في المقالة ايضًا إشارة إلى فرقة موسيقية صغيرة في إحدى أمسيات ساحة سان ماركو، أبدأ بوصفها على النحو الآتي: «إنهم يعزفون ألبينوني والفسيفساء الذهبيّة حالّة بأناقة محلّ الموت».

فالأمر شبه الوحيد الذي يستطيع بعض الجهاز فهمه في تلك المقالة، هو قولي، إنه على بعد ساعة طيران فقط عن باريس، يجتاز المرء مئات السنين إلى الوراء ليجد نفسه في مدينة لا مثيل لها ولا شبيه بها في هذا العالم، مقيمة في عزلتين تامّتين لم تخرج منهما قطّ، عزلة الماء وعزلة القرون الوسطى، يرتسم فيها نمطٌ فريد للحياة البشريّة. يكتشف الإنسان هنا، في ما يكتشفه، كيف تكون الحضارة الخالية من السيارات، والخالية حتى من عربات الخيل، حيث المركب والقارب والسير على القدمين هي الأساس. صحيحٌ أن الكلّ يعرف ذلك. لكن الأهم هو عيش هذه التجربة. يُفاجأ زائر البندقية بسهولة الاستغناء عن السيارة وسرعة نسيانها، ثم بعد

حين، باستغرابها ورفضها. إنّه لأمرٌ مذهل. فإذا صدف أن اتّجه المرء، بعد بضعة أيام من وجوده هنا، إلى مشارف محطة القطارات خارج المدينة، تأخذه الدهشة حين يرى من بعيد سيارة تجتاز «جسر الحريّة». تبدو له السيارة حينئذٍ كحيوان عدائي غريب. يتساءل إذا كان ما يراه حقيقيًّا، ويقول في نفسه: «أنظر، أنظر، إنها سيارة!». يُفاجأ للوهلة الأولى بها، ثم ينتابه الخوف منها. وإذا وصل إلى «الجسر الصغير» المفضي إلى «ساحة روما» في الخارج، وهي المكان الأخير الذي تصله السيارة، يُصاب بالهلع عند رؤيته صفوف الباصات المتوقّفة هناك، وما يحيط بها من مبانٍ ضخمة ومن أعمدة حديدية وإشارات سير ولوحات إعلانيّة وأشكال وألوان وحراك وصخب، فيفرّ مسرعًا مجتازًا من جديد «الجسر الصغير» نحو الداخل، لاجئًا إلى فردوس البندقية. ثمة أملٌ في هذه المدينة بنموذج آخر للحياة البشريّة، أكثر جمالًا وإنسانية. ويتساءل الناظر إلى الزائرين الأميركيين الكُثُر ما إذا كانوا في لاوعيهم، يأتون إلى هنا لرؤية ماضيهم، أم مستقبلهم؟

لكن إذا فهم بعض جهاز الطاغية هذا الجانب أم ذاك من المقالة، فما الذي يمكن أن يهمّه فيه وفي كاتبه؟

## - ١٨ -

على رغم الهزّة التي أحدثها في داخلي ظهور المحقِّقة وما يتفاعل في نفسي من جرّاء مسلسل الاستجواب، لا تزال رانيا تمثل فيَّ كلّ صباح في لحظة اليقظة الأولى مضيئةً أرجاء ذاتي، ولا أزال ألقاها، هي ووالدتي، كالمعتاد كلّ أسبوع. أخفي عنهما بكثير من الحرص ما يشغلني كي لا أعرّضهما للخطر. نقلتْ إليَّ رانيا اليوم أخبارًا مقلقة جديدة عمّا يحدث من حولها في المدينة. فقد جرتْ محاولة لحرق «برج الساعة» العثماني، على مقربة من مكتبتها، تمّ إحباطها، لكن لم يُكشَف الفاعلون. كما اختفى ثلاثة أشخاص آخرون لم يُعرف مصيرهم بعد. وأن حالة من البلبلة وعدم الاستقرار تسود الأحياء حيث بدأ شبّان مسلّحون يتولّون حراسة الأماكن العامّة

ليلًا. وأنها ستنتقل هذا الأسبوع، هي وابنها، الى بيت الشاطئ، لأنها لم تعد تشعر بالأمان في المدينة القديمة، وقد ألحّتْ على والدها للانتقال معهما، لكنّه رفض مغادرة منزله. قالتْ إنها ستكون من الآن فصاعدًا مقيمة على مقربة مني. سرّني ما ذكرتْه وأحزنني معًا، فهي لا تدري بهشاشة وضعي في «حصن الميناء» في انتظار التهم التي ستوجَّه قريبًا إليَّ، ولا في أيّ زنزانة أو سجن مجهول سأكون.

ليس عليّ أن أحاول المزيد لأدركَ الأسباب الحقيقية لمراقبة الجهاز لي على مدى كل تلك السنوات، قبل عودتي وبعدها. فالتركيز على مضمون المقالات الأربع لفهم ولو بعض السرّ، لا يجدي نفعًا. ولا بدّ أني، بعد تهرّبي المفاجئ من قبض أجري، ورفضي العودة إلى الكتابة في تلك المجلّة على رغم الإغراءات الكبيرة التي قُدِّمَتْ إليَّ، ثمّ تغييري رقم هاتفي ومكان سكني في باريس، قد أثارتْ من حيث لا أدري، حفيظة جهاز الطاغية وحذره، فأطلق عملية مراقبتي. مع أن تلك العوامل كلّها لا تكفي لتفسير الإصرار على ملاحقة رجل لا يتعاطى الشأن السياسي، طوال عقد كامل من الزمن.

بتّ أعرف الكثير من فصول مراقبة الجهاز لي على مدى السنوات الخمس الأخيرة من إقامتي في مدينة السين

والاستمرار في مراقبة آنًا بعد عودتي، عبر ما كشفتْه لي المحقّقة من معلومات لم تعد تهمّهم الآن، أو للتأثير في معنوياتي، وأيضًا عبر ما استنتجتُه أنا من فصول التحقيق ومن طبيعة الأسئلة الكثيرة التي طُرِحتْ عليَّ. فسرعان ما اهتدوا في حينه إلى عنواني الجديد في شارع كافنديش، على رغم أنه بعيد تمامًا عن الحيّ الذي كنتُ أمضي معظم الأوقات فيه، الممتدّ على الضفة اليسرى، من ساحة سان جيرمان الى «حديقة النبات»، وعلى رغم أني لم أُعلِم إلّا نفرًا ضئيلًا جدًا من صفوة أصدقائي بمكان سكني. ليس لأني كنتُ أخشى مراقبتي، لا، فهو أمرٌ لم أكن أتخيّله البتّة، بل لأني، خصوصًا بعد قضية «مرآة الشرق»، رغبتُ الابتعاد عن كلّ ذلك الوسط، والاكتفاء لتأمين الحدّ الأدنى من معيشتي بما يتوافر لي من أعمال الترجمة ومن الدروس الخصوصيّة. لقد تأكّد لي أن عملاء الجهاز، ومنهم هناء، كانوا يتابعون كلّ تحرّكاتي داخل باريس وخارجها، وفي كلّ مكانٍ أقصده قريبًا أكان أم بعيدًا. وما كان لقاء هناء بي برفقة «الانطاكي» في مقهى «لو ديبار»، إلّا محاولة منها للتعرّف إليَّ عن قرب في بدايات ملاحقتي. وأرجّح أنها لم تُعِد الكرّة لأن «الانطاكي» لم يتجاوب معها في هذا المنحى، وهو كان مدركًا مقصدها ومُلمًّا تمامًا بشخصها على ما أظنّ، فأخرج نفسه مبكرًا من الموضوع واختفى، وهو

في نظرته إلى ذاته أرفع بكثير من أن يتجسّس على أحد. إضافةً إلى رصدهم اليومي لما أقوم به ومعرفتهم بالأمكنة التي أرتادها أكثر من سواها، من حدائق عامة ومكتبات وصالات شاي ومقاهٍ، كانوا يهتمّون بوجهة سفري بالقطار مع آنّا لتمضية عطلة آخر الأسبوع، خصوصًا في بيت جدّتها في أورنوفيل عند شاطئ المحيط قبالة الجزر الأنغلو - نورمانية، أو في فندق «الملاك الأزرق» في قرية شارلوريه المجاورة، المطلّ على المرفأ الوادع، في تلك المنطقة البعيدة، الخلّابة، الحافل تراثها بالقصص الغرائبية وبحكايات الأسفار والعواصف والضباب والأشباح. كما أدركتُ أيضًا أن عيون الجهاز كانت تتابع رحلاتي، وحيدًا أو مع آنّا، إلى الأنحاء العديدة الأخرى التي أُحبّها والتي تتكرّر زياراتي لها، خصوصًا في الفصول شبه الخالية من السيّاح. وما أكّد لي ذلك بما لا يقبل الشكّ، ليس فقط أحاديث هناء الدقيقة عنها، بل أيضًا الصور الفوتوغرافيّة المأخوذة لي، أو لي ولآنّا معًا، في الكثير من هذه الأمكنة، التي أخرجتها هناء من ملفّاتها أمامي، ممّا أصابني بالذهول وبحزن لا يوصَف.

لا يستطيع جهاز الطاغية - المائلة صورته الآن أمامي وقد اعتدتُها بحيث لم أعد في معظم الأحيان ألحظ وجودها - أن يُدرك مدى الأذى الذي ألحقه بي وهو يراقبني ويلاحقني

ويصوّرني على مدى تلك السنوات الأخيرة من هجرتي. لقد لوّث بأعينه الناظرة فصولًا ومشاهدات حميمة، غنيّة، بالغة الأهميّة، من ذاكرتي وحياتي الداخلية، لن تعود علاقتي بها قطّ كما كانت عليه من قبل وعلى الدوام. إنّه لجرحٌ عميق في نفسي لا شفاء منه. فبصرف النظر عن نظام الاستبداد، وقبل أن يتسرّب شبحه إلى أراضينا، كنتُ أشعر، وقد ذكرتُ ذلك في كتاباتٍ سابقة، أن ما يميّز علاقتي بالأمكنة في الغرب عمّا هي عليه في بلادي، أمران أساسيّان: الجمالية والحرية. الجمالية، لأني حين عودتي ذُهِلتُ أمام فظاعة التشويه والبشاعة اللذين أحدثهما الإنسان في الطبيعة، في هذا الموطن الفريد، الذي كان منذ أقدم الأزمان رمز الجمال الأرضي في المخيّلة البشريّة، المشرقية والأوروبية أيضًا، في النصوص الأسطوريّة والدينيّة والأدبيّة على حدّ سواء، منذ فجر الحضارة حتى فترة قريبة خلتْ، والذي، من دون أن يدروا ماذا يفعلون، عبث أبناؤه، خلال ثلث القرن الأخير، عبثًا مريعًا بأعظم وأثمن ما فيه: جماله. كما أن المرء يتمتّع بحرية داخلية في حلّه وترحاله في أنحاء الطبيعة الغربية لا تتوافر له في بلادنا، المجزّأة، الموزّعة وفقًا لعصبيات القرى والمناطق والمذاهب والطوائف، حيث يشعر المتنقّل في أرجائها، كأنه مُطالَبٌ في كلّ مكان وفي كلّ وقت، بتوضيح مَن هو وماذا يريد.

كتبتُ في مفكّرتي قبل سنوات، لمناسبة الذكرى الخمسين للاستقلال، ما يأتي: «هذه الخمسون عامًا، كان نصفها الأخير مزيجًا من السيادة والسيادة المنقوصة، من الازدهار والإثراء، ومن الفساد والفقر، من البناء، ومن الإمعان في تشويه الطبيعة. وما شهدتْه الحرب الطويلة الأخيرة من دمار، لا يُقاس هوله بهول البناء الذي رافقها وتلاها. فهذا البناء هو الدمار الحقيقي الكبير، دمار القرى والمدن والشواطئ والسهول ومغيبات الشمس وطلوعات الفجر، وهو دمار الروح»، قبل أن أضيف: «من زمن ليس ببعيد، كنتُ أمضي بعض الوقت في مدينة أورليان عند ضفّة نهر اللوار. استفقتُ في هجعة الليل ونظرتُ من النافذة المُطلّة على الحديقة، وملأني شعورٌ عميق بالاطمئنان والسكينة. قلتُ في نفسي، إن وراء أسوار هذه الحديقة تمتدّ تلك السهول البهيّة الاخضرار، سهول بلاد اللوار، ثم بلاد البريتانيه، حتى المحيط. وإنه في كلّ هذا المدى، الشاسع، الهادئ، لا توجد طوائف ولا مذاهب، لا مدن متنافرة ولا قبائل متناحرة. وإنه في هذا المدى الموحّد، يتمتّع الإنسان بحريته الكاملة داخل الطبيعة، فلا يَسأل ولا يُسأل، ولا يبرِّر ولا يبرَّر له، فليس من حاجزٍ مرئيّ، أو غير مرئيّ، وهو الأدهى، يفصل بين شيء وآخر، وبين إنسان وآخر».

أُدرك الآن أني كنتُ مخطئًا في ما كتبتُه. فأنا لم أكن حرًّا

وأنا أرنو من نافذة أورليان إلى الحديقة وإلى السهول الليليّة.
كانت أعين الجهاز تراقبني طوال إقامتي آنذاك في «المدينة الملكيّة»، وقد أرتني المحقّقة صورةً لي وأنا أجتاز ساحة مارتروا، كذلك جسر جورج الخامس. لم تستطع الطوائف والقبائل اللحاق بي إلى هناك، والأمر في كلّ حال لا يهمّها في شيء، أما نظام الطاغية فاستطاع. وأنا لم يعد في مقدوري أن أُحسّ بعد الآن بما أحسستُ به أمام تلك النافذة المفتوحة على الليل، ولا أن أدوّن ما دوّنته. لقد قتل جهاز الطاغية فيَّ ذلك الشعور، كما قتل مشاعر ومشاهدات وأشياء كثيرة أخرى.

## - ١٩ -

تخلّل السنوات الأخيرة من إقامتي في مدينة السين العديد من الأحداث والتطوّرات، من أهمّها في نظري، اشتداد علاقتي بالمحيط الذي أضحتْ شواطئه ومدنه وقراه ومرافئه مقصدي الدائم، ثمّ الاضطراب الذي انتاب علاقتي بآنّا وأدّى شيئًا فشيئًا إلى انفصالنا في ظروف مؤلمة للغاية، ثمّ قراري العودة إلى البلاد الذي لم يكن سهلًا عليَّ اتّخاذه قطّ. وما يجرحني في أعماق نفسي أن أعين الجهاز السريّة كانتْ حاضرة في كل ذلك.

لقد شكّلتْ لي تلك السنوات وما قبلها، معينًا من الذكريات، بمسرّاتها وآلامها، وبأشخاصها ومشاهداتها ومشاعرها وأحلامها وهواجسها، كان له أعمق الأثر في

تحمّلي عبء البقاء والاستمرار اليومي بعد عودتي، حيث وجدتني في بيئة مخرّبة فيها الطبيعة الخارجية والروح، هي قبل كل شيء أرض طفولتي وصباي الأول، وأرض والديَّ وأجدادي، التي طالما حلمتُ بها من بعيد، ولم أستطع التأقلم مع ما آلتْ إليه ولا إعادة بناء حياتي فيها. وكما كنتُ أحلم بهُنا حين كنتُ هناك، صرتُ أحلم بهناك حين أصبحتُ هنا. إلى حين لوّثَ الطاغية وجهازه حلمي وأدخلا إليه سمّهما.

قبل أيام من دخولي السجن، كتبتُ في مفكّرتي: «لا أدري لِمَ أنا، منذ شهور، مسكونٌ على هذا النحو بالمشاهد البحريّة. فمنذ لحظة اليقظة الأولى يراودني التخيّل أنه وراء النافذة المغلقة يمتدّ شاطئ المحيط. ليس أيّ محيط، بل المحيط الذي خلف أسوار سان مالو. ومع أني أتخيّله صباحًا فهو لا يرتسم ولا مرّة أمامي في صبحه أو ظهيرته، بل دومًا في غروبه ومسائه، أو في عتمته الليلية حيث تلوح في الظلمة البعيدة، وسط الرياح، أضواء مبهمة تنبعث إليَّ مما يشبه الجزر والمراكب. أتمهّل في فتح عينيَّ وأقول لنفسي إن شاطئ المحيط مقيم وراء النافذة، فأرى إليه طويلًا، وأسمع وقع أمواجه، وتصلني خيالاته وروائحه، وتلج ذاتي مشاعره، كأني أمامه. كلّما تأملته خفّتْ رغبتي في النهوض والذهاب». ثم أضيف: «كي أُبقي نفسي في جوّ البحر، وفي منأى من

الخراب، غالبًا ما أكون عند آخر النهار سائرًا على شاطئ النخلتين القريب. أقف أمام أحد الخلجان الصغيرة، هو نفسه دومًا، ناظرًا إلى أرضه الصخرية، المتقطّعة، التي تعلوها الأعشاب، وتغمرها أو تنحسر عنها المياه، وإلى هامات الصيّادين الماثلة بعيدًا، تقبع وراءها مراكب راسية، وترتفع فوقها سماء مضطربة الغيوم وهائلة الاتساع، تحتضن من جهة الجبل، ومن الجهة الأخرى اليمّ حتى آخر الأفق المتوهّج الاحتضار». وأنهي مدوّنتي قائلًا: «ولا تثنيني عن الذهاب إلى هناك لا الرياح العاصفة ولا رذاذ المطر، بل تجذبني أكثر. كأني لم أعد أحتمل في فسحة نهاري غير صورة المحيط الذي وراء تلك الأسوار، وهذا الخليج الصغير. كأنهما ملجأ خلاصي الوحيدان. ولِمَ على الدوام في أوقات المغيب والليل، وفي الريح الخفيفة، والريح العاتية، وفصل المطر؟ لِمَ ولا مرّة في الشمس؟ من زمان لم أعد أرغب الشمس. شمس المشرق المحرقة، الناظرة بوقاحة إلى أجساد الأبرياء القتلى. الشمس الساطعة فوق أشلاء الطبيعة وأهوال العمار - الدمار. شمس الاستبداد».

كانت المحقّقة أرتني صورتَين لي ولآنّا في سان مالو، إحداهما وحدي وأنا أدخل فندق «أليزابيت» الذي أقمنا فيه، والأخرى تجمعني مع آنّا فوق الأسوار، وقد اخترقتْ هاتان

الصورتان نفسي كرصاصتَين.

كان رقادي هذه الليلة متأخّرًا مضطربًا، استفقتُ خلاله مرّات عدة، وجدتُني في إحداها أتمتم ملتاعًا: «ولدي! ولدي! أين ولدي؟». كنت في هذا الحلم الغريب أقود ما يشبه سيارة «جيب» ضخمة سوداء اللون وإلى جانبي ولد في نحو العاشرة من العمر هو ابني. لم يرد لديَّ في الحلم قطّ أني عازبٌ وأن لا ابن لي. كنت أقود على غير عادتي بسرعة هائلة، تاركًا لنفسي العنان من دون أدنى تردّد أو خوف، مع أن الزجاج أمامي كان بالغ السواد لا يتيح الرؤية. كنت أقود بتلك السرعة من دون أن أرى الطريق، أو أي شيء آخر. فجأةً أتتني فكرة مسح الزجاج قليلًا بيدي على شكل دائرة أشبه ما تكون بثقب صغير مرسوم أمامي. حينئذٍ أدركتُ أني أتقدّم هكذا على طريق ضيقة وسط غابة كثيفة للغاية، وأن الطريق تشقّ الغابة من طرفها إلى طرفها الآخر. شاهدتُ على جانب الطريق حيوانًا متوحّشًا أغبر اللون. تساءلتُ بقلق كيف أقود السيارة في هذا المكان، على هذا النحو، من دون رؤية، ومعي ولدي، وشعرتُ بارتياح كبير لأنه لم يقع لنا أيّ حادث. عرفتُ آنذاك أننا ضمن مجموعة كبيرة من الأشخاص المسافرين معًا لزيارة هذه الغابة وضواحيها، وأن المجموعة استقرّت عند مدخل الغابة في بناء كبير من طبقتين، أو ثلاث، صلب ومعتم اللون.

لكني، بعد أن اجتزتُ الغابة وابتعدتُ عن الفريق، شيّدتُ على عجل نوعًا من البيت الخشبي، في موقعٍ محدّد تمامًا على سفحٍ صغير عن يسار الطريق. كان قد حلّ الليل، فآويتُ ابني في هذا البيت، ثم رجعتُ لأرى المجموعة في الطرف الآخر من الغابة، التي اجتزتُها وحدي سيرًا على القدمين. أخذ عبوري الغابة ولقائي المجموعة وقتًا قصيرًا، عدتُ بعده أدراجي مسرعًا إلى ابني. لكني لم أعثر على البيت في المكان الذي بنيته فيه. لم أجد ذلك المكان قطّ. تعاظم قلقي على نحوٍ رهيب. أين هو البيت الذي شيّدتُه ووضعتُ فيه ولدي؟ لم أفقد الأمل تمامًا. رحتُ أبحث عن البيت في محيط الغابة، في عالمٍ ليلي يمكن فيه مع ذلك تمييز الأشخاص والأشياء. وقع نظري على مدًى فسيح منبسط، يتحرّك فيه عددٌ كبير من الأشخاص، الداكني الثياب، الذين يزورون تلك الأنحاء في جوٍّ من السكينة العميقة، بعضهم سيرًا على القدمين، وبعضهم الآخر في ما يشبه العربات الصغيرة المكشوفة، التي تتقدّم على سكك حديد متداخلة. تساءلتُ ما الذي يزوره هؤلاء الناس بصمتٍ مهيب في هذا المكان الخالي؟ أدركتُ أني فقدتُ كليًّا موقع البيت حيث ولدي، وأُصبتُ بحالٍ من الضياع المفجع. أجهدتُ نفسي في البحث عن المجموعة التي ترافقنا لطلب نجدتها. اجتزتُ من جديد الغابة الكثيفة المظلمة.

وجدتُني مرّةً أخرى قبالة البناء الصلب المعتم اللون الذي يقيمون فيه، وهو مُغلق. تصاعد قلقي أكثر فأكثر وأنا أتقدّم نحوه ولا أمل لي في أن ينجدني أحد. انسدّ في وجهي الأفق وشعرتُ بالاختناق والتلاشي، فاستفقتُ مذعورًا، مطمئنًّا بعد حين إلى وجود الكوّتين الكبيرتين المستديرتين أمامي يملأهما ضوء الفجر الطالع.

.

# - ٢٠ -

كانت اللحظة الأكثر مأسويةً في مراحل استجوابي حين أخرجت المحقّقة من ملفّها صورة لي ولآنّا معًا في رأس مورين، ونحن واقفان أمام الفندق الصغير الذي يحمل الاسم نفسه، وهو الفندق الوحيد في هذه الهضبة الصخرية البعيدة، المنعزلة، المتوحشة، الغامقة الخضرة، التي تشرف من علوّ شاهق على المحيط عند خليج سان لو، في مشهد شاسع وساحر، خالٍ إلّا من صفحة اليمّ، حتى جزر لوسي. تُرى كيف استطاعتْ أعين الجهاز اللحاق بنا إلى هناك؟ كان حزني ودهشتي عظيمين لم أستطع إخفاءهما وانا أحدّق في تلك الصورة غير مصدّق ناظري. لكن ما من مجال للشكّ، فها هما نحن، وها هو فندق «رأس مورين»، وقد حرص العميل على إدخال لافتة الفندق إلى الإطار.

كان في هذه الصورة شيء من التدنيس الذي لا يُحتمل. كانت هضبة رأس مورين مكاننا الخفيّ وحديقتنا السرية، وقد حرصنا على الدوام على عدم إخبار أحدٍ بها، وعدم إعلام أقرب المقرّبين إلينا برحلاتنا إليها. وحين كنا نستقلّ القطار للذهاب إلى هناك، كنا نشعر كأنها رحلة إلى أعماق ذاتنا، حيث الاندماج الأمثل بين جسدينا وروحينا. كنا نرتاد الغرفة نفسها في الفندق العائد إلى القرن السابع عشر، كما كنا نفعل في فندق «الملاك الأزرق» في شارلوريه، وفي سائر الفنادق الأليفة التي نحبّها. وكنا نختار أوقات السنة الأكثر ملاءمةً للعزلة حيث يخلو المكان من الزوّار والسيّاح. فغالبًا ما كنا وحدنا في الفندق، وإن وُجدتْ أحيانًا بعض السيارات المتوقّفة هناك لأشخاص قلائل من المنطقة يأتون للتنزّه سيرًا على القدمين في ساعات الجَزْر وصولًا إلى مغارة عند الشاطئ، ويُرجّح أن يكون عميل الجهاز اندسّ بينهم.

كنا نمضي الكثير من الوقت في غرفتنا الفسيحة، المزدانة بلوحة جميلة من الرسم الفلامندي، المطلّة نافذتاها الكبيرتان على المحيط، وكثيرًا من الوقت أيضًا ونحن نمشي خارج الدروب المألوفة، فنجتاز الهضبة وصولًا إلى المُطلّ الواسع الآفاق، في هدأة الطبيعة كما في هبوب الريح، حتى حين تكون باردة وعاتية. وكنا نجلس، أحدنا قرب الآخر، في

المدى الخالي، القاتم الخضرة من ورائنا، القاتم الزرقة من أمامنا، نتأمّل المحيط من أعلى الهاوية، ونصغي إلى وقع أمواجه وهو يصعد ويتوغّل على مدى الشطآن، ثم ينحدر من جديد، ترافقه في حركته الأبدية أسراب النوارس. لم يكن من أثرٍ بشريّ غير هذين البناءين البعيدين، المنارة البيضاء من جهة، والفندق الصغير من الجهة الأخرى. كنا نجلس طويلًا بصمت، متحسّسَين بشغف عزلتنا وحرّيتنا، مصغيين إلى أصوات الرياح والأمواج وطيور البحر، فنتبادل الأفكار ونتناقل المشاعر، ويتّحد عميقًا أحدنا بالآخر من دون أن ننبس ببنت شفة.

لكن من غرائب القدر أن ملاذنا الأبهى الذي هو رأس مورين، الشاهد لتوهّج ولهنا وسحر رباطنا، كان شاهدًا أيضًا لتلك العبارة المؤثرة، الموجزة، التي بدأ بها، وسط عذابات طويلة ومبرّحة، مسار انفصالنا. كنا في غرفة الفندق، في لحظة حميمة، حين قالت آنّا همسًا وهي مغمضة العينين: «كم أودّ أن نُرزَق طفلًا». قبّلتُها بحنوّ وشددتُ على يدها، لكنّي لم أُجب بشيء.

لم يفاجئني تعبير آنّا عن هذه الرغبة، فهي كانت ترسل إشاراتٍ مبهمة بهذا المعنى بين حينٍ وآخر. كما أن حبّنا القوي

الذي مضتْ عليه بضعة أعوام، لا بدّ أن يوصل ذات يوم إلى ذلك. لكن إقدام آنّا على البوح بوضوح عن توقها إلى الطفل، وضعني في حالة إحراج بالغ، تطلّبَتْ مني إجابة لم يكن في مقدوري إعطاؤها، فلذتُ بالصمت. منذ ذلك اليوم أُصيبتْ علاقتنا بصدع غير مرئي سيضعها على طريق التفكّك البطيء لكن المحتوم، إذا تغاضيتُ عن رغبة آنّا. بعد نحو شهر عادتْ إلى الموضوع نفسه، على نحوٍ أكثر وضوحًا أيضًا. قالتْ لي ذات مساء ونحن في شقّتنا في شارع كافنديش: «لأسهّل عليك الأمر، أنا غير مُصرّة على الزواج إذا كنتَ لا تريده، بل على الطفل. أكثر من ذلك، سيحمل الطفل بالطبع اسمك، لكن إذا كانت تصعب عليك المشاركة في تربيته لسبب أم لآخر، فأنا أربّيه وحدي». كان كلامها مؤثرًا، وكانتْ تعبّر بصدق ونبل عن سعيها إلى جعل الأمر أكثر إمكانًا لديَّ، من دون أن تُدرِك قطّ أن ما قالته سيزيد من إحراجي وسيجعل المسألة أكثر تعقيدًا في نفسي. أجبتها: «أعطيني بعض الوقت يا آنّا لأفكّر قليلًا في ذلك».

كنت ولِهًا بآنّا لا أحتمل فراقها، وكان هذا الوله متبادَلًا بالعمق نفسه، كما كانت علاقتنا على قدر كبير من الاستقرار، مما يندر حدوثه في حالات الشغف التي أعرفها تمام المعرفة، حيث هناك على الدوام الظالم والمظلوم، والجلّاد والضحيّة،

وحيث الاضطراب والتناقض واللوعة، وتوالي القطيعة والوصال على مدى الوقت، والغياب والانتظار، والقسوة والغفران، والقلق الذي لا يستكين، وأشياء كثيرة أخرى، كلّها «على حدّ السيف»، تدمي النفس بعذابات لا تُحصى، وخصوصًا في البيئة الباريسية المحيطة بنا، التي مثلها مثل سائر المجتمعات الصناعية، لا تتلاءم مع الهيام بشخصٍ واحد يمحو وجوده كلّ ما هو سواه. إنه لشعورٌ مأسوي في كلّ زمان ومكان، لكنه يصل الى مأسويته القصوى في المجتمعات الصناعية، المجرّدة من الطقوس، البالغة المادّية والعقلانية.

بعيدًا من الهيام الذي هو حالة نادرة وشديدة الخصوصيّة، طالما شغلني التفكير في اهتزاز العلاقات من حولي وعدم رسوّها على حال. ولا شكّ في أن تجربة العيش طويلًا في مجتمعَين متباعدَين ومتباينَين للغاية، تولي المرء عبر المقارنة، قدرًا من إدراك المصائر البشرية في العالمين على حدّ سواء، لا يتوافر لابن المجتمع الواحد. فأنا أعتقد أنه تتعذّر معرفة الانسان حقًّا ضمن ثقافة واحدة. هكذا كنت أنظر إلى حال اللاإستقرار في العلاقات البشرية السائدة حولي ساعيًا إلى فهمها. كان هناك فعل الشيء ونقيضه في آن واحد، واعتبار أن ما يعيشه المرء في الحاضر، سواء أكان باهرًا أم مخيّبًا، باعثًا على السعادة أم التعاسة لا فرق، هو حكمًا غير ما يجب أن

يعيشه. ذلك أن الحياة الحقيقية في نظره هي في طبيعتها غير الحياة المعيشة. أضف إلى ذلك، التوق إلى عيش حيواتٍ كثيرة في حياة واحدة وفي الوقت نفسه، ضمن ازدواجية الأنا والآخر، والداخل والخارج، بحيث تكون هذه الحيوات كلّها منفصلة تمامًا إحداها عن الأخرى فلا يرى الناظر إليها من الخارج إلّا واحدة منها، ومتّصلًا ومندمجًا بعضها ببعض في نظر الذات وداخلها. إن التوغّل في الفرديّة والحريّة اللتين لا حدود لهما، وفقدان الجذور، وانهيار التقاليد، وهيمنة الشأن المادي هيمنةً تامّة على مشاعر العطاء والمجّانية، وتحوّل الجسد قيمة عظمى في ذاتها، بما يمثّله من رونق وفتوّة ورشاقة وإغراء ولذة، وتعدّد أشكال الحياة وأنماط العلاقات على نحو يتيح المجال لكلّ احتمال، قد جعلتْ من الإنسان إلهَ نفسه، ملقيةً على كاهله أعباء وجوديّة ثقيلة ينوء تحتها، من دون أن يدرك ما به أو يعيه. لا بل يبدو متعلّقًا بشدّة بما هو عليه، ولا يتصوّر ذاته أو ربما أيّ ذات بشريّة أخرى على نحو آخر. ومع أن الكلّ في مدينة السين يشتكي من العزلة وانعدام السعادة، فلا أحد يُقدِم على شيء للخروج منهما. أو بالأحرى، لا يستطيع شيئًا. لأن المسألة ليست في القرار الشخصي العصيّ على الفرد، بل في بنية مجتمعية وثقافية مُحكمة، وفي نمط حياة مُكرّس، لا يتيحان ذلك. ويبرز هنا تناقضٌ طالما كان

موضع دهشتي: بقدر ما يبدو الانسان حرًّا إلى أقصى الحدود، وهي حقيقة واقعة، يبدو مُسيّرًا، غير قادر على تغيير سلوكه وذاته. فهو وليد حركة تاريخية كبرى حاملة رؤيةً جديدة للحياة البشرية والكون والزمن، ومُحدِثةٍ من المعارف والاكتشافات والاختراعات ما يتجاوز الخيال، بما فيها من إنجاز باهر ومن خطر ومغامرة مجهولة المآل، وهي تتجاوز الأفراد الذين أنتجتهم تجاوزًا مطلقًا. لا يعني ذلك قطّ أن الحلّ يكمن في ما يشبه المجتمعات التقليدية، حيث سطوة التقاليد، وذوبان الأفراد في الجماعات إلى حدّ الزوال، وحيث الكبت والقمع والعنف والعقم ورفض كلّ ما هو مختلف. فبين حركة الحريّة والفرديّة المنطلقة بلا قيود، المتوغّلة في المغامرة القصوى، والجماعات الحذِرة، المكبّلة، المكرّرة ذاتها على مرّ الزمان، يصعب العثور على المثال المنشود. فليس هناك مجتمعٌ بشري متوازن حقًّا، لأنه ليس هناك اختراق لسرّ الموت ولا إجابة عنه.

## - ٢١ -

لكلٍّ هاجسه. بينما كان جهاز الطاغية يتابع بلا كلل تحرّكاتي في بلاد تبعد ألوف الأميال عن عالمه، علّه يجد في حلّي وترحالي شيئًا ما يُؤخذ عليَّ، كنت أنا في كوكب آخر، غائصًا في عالمي الداخلي، مبتعدًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى عن أي شأن، صابًّا كلّ اهتمامي على أمرٍ واحد: كيف أنقِذ حبّي لآنّا وأقصيه عن بحر العواصف؟ كانت علاقتي بآنّا واحة ضوء وسكينة في خضمّ عارم من الاهتزاز والاضطراب، لم نكن، لا هي ولا أنا، خارجه، قبل أن نلتقي. ولا شكّ في أن كلّاً منا وجد في هذه العلاقة مرفأ أمان يُبعده عن الحرب الدائرة حولنا ويجنّبه الوقوع فيها من جديد. أذكر من تلك المراحل ما أسرّه اليَّ أحد أصدقائي، بأنه علّق قبالته على الحائط، إلى جانب

الروزنامة، ورقة كتبَ عليها العبارة الآتية: «انهضْ، إنّها الحرب!»، كان يحرص على قراءتها كلّ يوم قبل أن يغادر شقّته في الصباح البارد. وكان يحرص ايضًا على التأكّد من أنه اصطحب «سكّينه الصغير الخفي معه»، على حدّ تعبيره، أي قساوة نفسه، كي يستطيع المواجهة. أذكر من تلك المراحل أيضًا ذلك المفهوم الذي توصّلتُ اليه وسمّيته «نظرة الذئب». كنتُ أقصد به أن أعوّد نفسي النظر إلى أشياء الحبّ، ليس بقسوة، كلا، بل بعزلة، ومن مسافة داخلية محدّدة، تبعدني عن رغبة امتلاك الآخر امتلاكًا كاملًا، وتجنّبني نزعة الولوج إلى أعماق المرأة وجعلها تلج أعماقي، وعدم دمجها في ذاتي، ودمج عالمها وماضيها وطفولتها وكلّ ما يمتّ إليها بصلة. فما أريده هو أن أبقى وأبقيها معي قدر الإمكان خارج الذات، في فسحة الجسد لا أبعد، وأن لا أحاول معرفة الكثير عنها، وأن لا تعرف الكثير عنّي. غنيٌّ عن القول إن دفاعات «نظرة الذئب» الموهومة، الناتجة من أحداث الماضي بحلوها ومرّها، قد انهارتْ حين التقيتُ آنّا.

كنتُ أعتقد على الدوام أني أملك رؤيةً واضحة لما يحدث في داخلي، وحريّة تامّة في تقرير ما أريد. أعرف الآن أني كنت مبالِغًا في اعتقادي، وواثقًا أكثر مما يجب، من ذاتي. كلّما افتكرتُ في موضوع الطفل، صعُبَ عليَّ إدراك ما يجول

في نفسي، ولمستُ كم أنا عاجزٌ عن التقرير. إنها المرة الأولى أجد نفسي في مثل هذه الحالة، وهو أمرٌ يفاجئني ويحزنني. أعلم أن آنّا، وإن لم تشر إلى ذلك، كانت تتوقّع أن أفرح بفكرة الطفل وأتبنّاها بحماسة ومن دون أدنى تردّد. وإلّا، لما كانت فاتحتني بها. لأن كبرياءها تمنعها من ذلك. ولأنها أيضًا، لو عرفتْ أن الكشف عن رغبتها سيُحدِث كلّ هذا الالتباس في علاقتنا، لما أقدمتْ عليه، أو لكانت أرجأته إلى زمنٍ آخر. لكن ما حصل قد حصل، ولم يعد من سبيل لمحوه. عبارة قصيرة، مؤثرة، «كم أودّ أن نُرزَق طفلًا»، باحت بها آنّا في فندق «رأس مورين»، سقطتْ على حين غرّة كحصاةٍ كبيرة في بحيرة نفسي، مُحدِثةً فيها قدرًا لا ينتهي من التموّجات. أعلم أن عدم إجابتي في المرّة الأولى، ثم طلبي وقتًا للتفكير في المرّة الثانية، قد أصابا آنّا على التوالي بجرحَين لا أدري إذا كان حبّنا سينجو منهما. أعلم أيضًا بوضوحٍ كلّي أنها هي على تمام الحق في هذه المسألة، والخطأ كلّه يقع عليَّ وحدي. فأيّ تعبير عن قوّة حبّها هو أعمق وأبهى من هذه الرغبة في أن يكون لنا طفل؟ وأيّ غموض أكبر من هذا الصمت وهذه الحيرة اللذين أصبتُ بهما؟

هكذا وجدتُني في وضعٍ مُحزن لا أُحسَد عليه، وفي تمزّقٍ داخلي مأسوي لم أعرف مثله، بين ولهي بآنّا من جهة،

وعجزي البالغ عن التقرير في أمر الطفل من جهة أخرى. رحتُ أمشي طوال الوقت وحيدًا في حديقة «بوت شومون» الكبيرة، وعلى ضفتي قناة سان مارتين، غير البعيدتين عن مسكننا، متبحّرًا في نفسي، متوغّلًا في أعماقي، علّني أُدرِك لماذا لا أستطيع التجاوب في أمر الطفل مع امرأةٍ أراني مستعدًّا للتضحية بكلّ شيء من أجلها. وما كان يزيد في عذابي، معرفتي بأن كلّ يوم يمرّ من دون جواب يوسّع الصدع أكثر بيننا. فإلى أين أنا ذاهب؟

تذكّرتُ ما أخبرتني به آنّا مرةً عن شاب من سكّان هذا الحيّ كانت تعرفه وتلقّبه تحبّبًا بـ«ذئب بوت شومون المسحور»، نسبةً إلى أسطورة الغول المتخفّي في هيئة ذئب. كان أصيب باضطرابٍ نفسي غريب لم يشفَ منه في ما بعد. فقد بات يتعذّر عليه فجأةً الذهاب إلى عمله، أو التجوّل في أيّ مكان في المدينة، إذ كان يُخيَّل له على الدوام أنه سيفقد وعيه ويسقط أرضًا. ومع أنه لم يسقط ولا مرّة، فقد أصبح يخشى الخروج ويلازم البيت طوال الوقت حيث كان يعيش مع والدته المسنّة. كان يقصد مكانًا واحدًا يسير فيه من دون خوف هو حديقة «بوت شومون» القريبة من بيته. وقد ساء وضعه أكثر بعد وفاة والدته. وتعتقد آنّا أن اضطرابه يعود على الأرجح إلى حادثة مؤلمة عاشتها أمّه حين كانت حاملًا به.

كانت جالسةً مع زوجها في مقهى على ضفة قناة سان مارتين حين استأذنها للخروج قليلًا ثمّ العودة. انتظرتْه طويلًا ولم يعد، وأمضت الليل ساهرةً ولم يعد. عند الصباح عُثِر على جثّته طافيةً على مياه القناة، وأغلب الظن أنه انتحر.

لم أستطع التقرير في أمر الطفل على رغم كل ما حاولته بيني وبين نفسي، ولم أبلّغ آنّا جوابًا. أعلم أنها لن تفتح الموضوع معي من جديد، لكنّها ستردّ عليَّ بطرق أخرى. شيئًا فشيئًا بدأتْ آنّا تتهرّب بلطف من العلاقات الجسدية، وصولًا إلى الانقطاع الكامل. كنتُ أقرأ في عينيها البهيتين، اللتين تغشاهما مسحةٌ من الحزن، ما يأتي: «ما عدتُ راغبةً في علاقات جسدية لا تهدف لغير المتعة». استمرّت الأمور بيننا على هذه الحال بضعة أشهر، لم أصل خلالها مع نفسي إلى أي نتيجة. عند حلول الصيف، كان مقرّرًا أن نمضي ردحًا من العطلة على شاطئ شارلوريه، وردحًا آخر على جزيرة في خليج موربيان. قصدنا شارلوريه أوائل شهر تمّوز، لكن آنّا رغبت في الإقامة وحدها في بيت جدّتها في أورنوفيل المجاورة، على أن أنزل من جهتي في غرفتنا المعتادة في فندق «الملاك الأزرق»، ونمضي مجمل النهار معًا. بعد ذلك قالت إنها مسرورة هنا في أرض طفولتها التي تمدّها بالقوّة والصفاء، ولا ترغب في الانتقال إلى خليج موربيان. بعد انتهاء العطلة

وعودتنا إلى باريس، أكّدتْ آنّا استمرار علاقتنا من دون تغيير، لكنّها تودّ العيش وحدها في شقّة في الحيّ نفسه، وأبقى أنا هنا في شقّة شارع كافنديش، كي يستطيع كلٌّ منّا «مراجعة نفسه بهدوء»، على حدّ تعبيرها.

كنتُ أشاهد التمزّق الذي تسرّب إلى حبّنا يتّسع كلّ يوم أكثر، وسط عذابات مبرّحة يجهد كلٌّ منا نفسه في إخفائها عن الآخر، وكنتُ أعي أن مسؤولية هذا الخراب المفجع تقع على عاتقي وحدي، وأن آنّا غير مخطئة في شيء قطّ، مما كان يضاعف آلامي ويعمّق شعوري بالذنب تجاهها وتجاه نفسي. لكن رغم ذلك كله، لم يكن من قدرة لديّ على التقرير بشأن الطفل، وما عدتُ أدري اذا كان هذا القرار لا يزال مجديًا، أم أن الأمور وصلت الى نقطة اللارجوع واللاجدوى.

سئمتُ السير في أنحاء باريس بحثًا عن شيء داخل نفسي لا أجده، فرحتُ أستقلّ القطار، الذي يستهويني كثيرًا، إلى مدن وأمكنة أخرى أمضي نهاري فيها ثم أعود، وفكري يدور بلا هوادة حول النقطة نفسها ويصطدم بالاستحالة نفسها. قصدتُ شارتر وجلستُ في مقاهيها وجبتُ شوارعها ثمّ عدتُ مساءً كما ذهبت، كذلك سانليس، وبروفين، وسواهما، وحللتُ في تروفيل وهونفلور وإيتريتا وتمشّيتُ طويلًا على

شواطئها، وعدتُ أدراجي خاوي الوفاض. بتُّ على يقين من أن مسألة الطفل تتخطّاني وترتبط بمناطق مجهولة مني في داخلي، لا قدرة لي على السيطرة عليها. أضحت لياليَّ مؤرِقة وحافلة بالكوابيس. لم تعد لي طاقة على أعمال الترجمة ولا على الدروس الخصوصية التي أعتاش منها، وعلمتُ من آنّا أنها لا تواظب هي أيضًا كما يجب على عملها في «متحف غوستاف مورو»، ولاحظتُ هزالها المرّة الأخيرة ولاحظتْ هي أيضًا شحوبي وهزالي. غرقتُ في البكاء عند عودتي إلى مسكني، ولا شكّ في أنها فعلت الشيء نفسه في مسكنها. ثمّ ما عدت أبارح البيت إلّا في ما ندر غائصًا أكثر فأكثر في كآبتي.

## - ٢٢ -

وقعتْ في ذلك الوقت حادثة في مبنى شارع كافنديش وفي الطبقة نفسها التي أسكن فيها، كان لها أثرٌ عميق في نفسي. في الشقّة المقابلة تمامًا لشقتي، كان يقيم رجلٌ، أو رجلٌ وامرأة، لا أدري، لأنه منذ نزولي هنا لم أرَه أو أرَهما ولا مرّة، لاختلاف أوقات ذهابي وإيابي عن أوقاته، أو أوقاتهما، وهذا أمرٌ شائع في الأبنية الباريسية يمكن أن يدوم أشهرًا، بل سنوات أحيانًا. فوجئت وانا عائدٌ ذات يوم نحو منتصف الليل، بوجود مفتاح مصحوب بعلّاقة مفاتيح في الثقب الخارجي لقفل تلك الشقّة، أثار استغرابي. كان ردّ فعلي الأوّل أن أطرق الباب وأنبّه من في الداخل إلى ذلك. لكن الحياة هنا تُعلّم المرء عدم التدخّل في ما لا يعنيه، وعلى هذا الأساس لم

أتعاطَ في الأمر وولجتُ شقتي وأغلقتُ بابي. لدى خروجي عند الساعة العاشرة صباحًا، دُهِشتُ لرؤيتي باب الشقة المقابلة مفتوحًا على مصراعيه، وهو أمرٌ بالغ الغرابة هنا. ثم ظهرت امرأة في نحو الثلاثين كانت في الداخل، وقد بدا عليها الارتباك والاضطراب، وتوجّهتْ إليَّ مع أنها لا تعرفني ولا أعرفها، وهذا أيضًا أمرٌ غير معهود، قائلةً: «أدخلْ وانظرْ، إنه هنا وقد فارق الحياة!». دخلتُ قليلًا وشاهدتُ شابًا في ثياب النهار مستلقيًا على الجانب الأيسر من جسده فوق مقعد، وقد طوى قليلًا ركبتيه كأنّه نائم. لم أرَ وجهه. وحين التفتُّ إلى المرأة لأسألها ماذا حدث، وماذا يجب أن نفعل، وجدتُها تتوارى سريعًا في الرواق نحو المصعد، فلم ألحق بها. علمتُ بعد ذلك من حاجب البناية الإسباني أن الرجل انتحر في ظروف يعرفها المحقّقون لم يوضحها لي ولا سألتُه عنها.

لم تعد صورة ذلك الشاب المنتحر، الذي يبدو نائمًا بهدوء على أريكته، لتفارقني قطّ. وسط كآبتي وعذابات نفسي، صرتُ أربط بين صورته وقلقي المتزايد على آنّا. حزمتُ أمري بعد أيام وقلتُ في قرارتي إنه علينا الخروج بأيّ شكل من الدوامة الرهيبة التي نعيشها والتي يمكن أن تودي بنا إلى الهاوية. قصدتُ ذات مساء آنّا وصارحتُها قائلًا: «سامحيني يا آنّا، إني أحبّكِ إلى أبعد الحدود وأقدّم حياتي فداءً لكِ، لكن لا

أدري ماذا أصابني في موضوع الطفل، فأنا في غاية التعاسة لأني لا أستطيع أن أقرّر. حاولتُ المستحيل، لكني لم أستطع. إنه لأمرٌ يتخطّاني ولا أقوى عليه، ولا أدري ما يجب أن أفعل». قالت إنها تصدّقني حقًّا في كلّ ما أفصح عنه وتبادلني مشاعر الحبّ عينها ولا تتخيّل نفسها لحظةً مع أحد سوايَ، لكنها متعبة للغاية ولم تعد قادرة على الاستمرار في باريس، وقد طلبتْ إجازةً لمدة عام، وستنتقل قريبًا لتقيم في بيت جدّتها في أورنوفيل محاوِلةً شيئًا فشيئًا استعادة ذاتها. قالت إني أستطيع أن أكتب إليها، لكنّها ترجوني عدم مكالمتها على الهاتف أو الحضور إلى هناك لرؤيتها، ايًّا يكن السبب، فوعدتُها بذلك وقلبي ينعصر ألمًا.

بعد رحيلها إلى أورنوفيل لم أعد بدوري أطيق الإقامة في باريس. صرتُ محاطًا بفراغٍ هائل وسط المدينة المتلألئة الأضواء، المفعمة بالاحتمالات، الزاخرة بالوعود. بات هذا العام الذي ستغيب فيه آنّا عن مدينة السين صحراء شاسعة تمتدّ أمامي لن أقوى على اجتيازها قطّ. إضافةً إلى الصدع العميق الذي في داخلي، أدّى انهيار البيئة الصحافية التي كنت أكتب ضمنها وهروبي مما تبقّى منها، ثمّ انقطاعي عن الأعمال البسيطة التي كنتُ أقوم بها لتأمين معيشتي، إلى وضعي أمام خيارٍ واحد لا حياد عنه: رجوعي، ولو موقتًا، إلى بلادي.

هكذا عادت آنّا الى أرض طفولتها وعدتُ إلى أرض طفولتي. لحظة وصولي أدركتُ أنه، فوق مأساتي الذاتية، عليَّ تحمّل مأساة الخراب الكبير الذي أصاب الطبيعة والمشهد خلال هجرتي، وهو أمرٌ لا يُصَدّق. لم يمضِ وقتٌ طويل على وجودي هنا حتى لمستُ أيضًا كم أنّ ظلّ الاستبداد آخذٌ في التمدّد داخل بلادنا، وأدركتُ مدى التشويه والاضطراب اللذين يحدثهما في النفوس. بدأتْ مرحلةٌ من المراسلة بيني وبين آنّا دامتْ أشهرًا طوالًا. كنتُ أبعث برسالة وأتلقّى جوابًا كلّ أسبوع تقريبًا. كانت تحمل رسائل آنّا، التي جدّدتْ إجازتها عامًا آخر، مشاهداتها ومشاعرها وأفكارها في عالم أورنوفيل، على شكل يوميّات معبّرة ومؤثرة كنتُ حاضرًا في حناياها، وهي محفوظة بعناية لديَّ. كما كنتُ أضمّن رسائلي إليها كلّ ما يجول في خاطري من مسائل وهواجس حول حبّنا، متطرّقًا فيها أيضًا إلى شبح الاستبداد وخراب الطبيعة من حولي. لكنّي لم أُشِر ولا مرّة إلى موضوع الطفل، ولا هي أشارتْ إليه. في وقتٍ ما، أصبحتْ رسائل آنّا متباعدة، ثمّ انقطعتْ من دون إيضاح. تكرّرتْ رسائلي إليها، وعبثًا كنتُ أنتظر الجواب. اشتدّ تساؤلي وقلقي، خصوصًا بعد توالي اتصالي الهاتفي ببيت أورنوفيل حيث تُقيم، من دون الحصول على ردّ. بات واضحًا لي أن البيت مقفل، وأن آنّا غادرته إلى جهة لا أعرفها. لم

أنتظر طويلًا. حزمتُ حقائبي وسلكتُ طريق العودة. لم أمكث في باريس، بل قصدتُ مباشرةً أرض آنّا، فنزلتُ في غرفتنا المعتادة في فندق «الملاك الأزرق»، ثم ذهبتُ إلى بيت الجدة مرارًا فوجدتُه مُغلقًا بالكامل، وما من أثر لآنّا أو لأحد هناك. كما سألتُ عنها في الفندق وفي المقاهي البحرية والأمكنة الأخرى التي كنا نرتادها فكان الجواب هو نفسه، أنهم لم يروها منذ أمد طويل. حينئذٍ انتقلتُ إلى باريس، فزرتُ المبنى الذي كانت تقيم فيه في حيّ بوت شومون ولم أجد لها أثرًا. ثم قصدت «متحف غوستاف مورو» حيث كانت تعمل، و«متحف الفن المعاصر» الذي عملتْ فيه من قبل، وعددًا من المتاحف الأخرى التي يمكنها العمل فيها، لكن بلا جدوى. كما أن اتصالي بمعارفها القلائل لم يؤدِّ الى نتيجة. لم يبقَ لي إلا عمّتها المسنّة المقيمة في شارلوريه، التي زرناها معًا مرّةً منذ سنوات، وقد تردّدتُ في طرق بابها قبل أيام أثناء وجودي هناك. عدتُ إلى شارلوريه بحثًا عنها، فوجدتها على العنوان نفسه. أضحتْ ضعيفة النظر، بطيئة الحركة، وقد رحّبتْ بي بحرارة حين أعلنتُ عن نفسي. أخبرتْني أن آنّا تعرّفتْ منذ مدّة إلى رجل من القرية عاد إليها بعد أن أمضى ردحًا طويلًا من حياته في بوردو، وأنهما سافرا معًا إلى إحدى جزر المحيط الهادي.

وقع كلامها عليَّ كالصاعقة. لن أستفيض في ذكر عذاباتي وقد تيقّنتُ من فقداني آنّا حقًّا، ولا في استعادة أوجاعي التي لا تُحتمَل وأنا أتصوّرها مع رجلٍ آخر، ولا الشعور بالذنب الذي يخنقني لأن مسؤولية ما حدث تقع عليَّ وحدي. كنتُ في طائرة العودة، شبه غائبٍ عمّا حولي، كأنّي ذاهبٌ من لا مكان إلى لا مكان. تألّمتُ كثيرًا وعانيتُ الأمرّين في الأشهر التي تلتْ، متمسّكًا في أعماقي بحبل وهمٍ غريب هو الذي ربما أبقاني حيًّا. إنه ستصلني فجأةً ذات يوم رسالة من آنّا، أو أكثر من ذلك، سأسمع ذات مساء طرقًا على الباب وسأجدها أمامي. ثمّ شيئًا فشيئًا، ببطء شديد، ومن دون أن أدري، عملت السنون على بلسمة جراحي.

مع أنه مضى وقتٌ طويل على فقداني آنّا، وعدم معرفتي أيّ شيء عنها، فأنا لم أفقد عوالمها. ثمّة مشاهد في ذاكرتي، قليلة العدد، أسمّيها «المشاهد المختارة»، لها تأثيرها السحري على حنايا ذاتي، ومشهد البحر عند شارلوريه منها. هي لا تؤثّر فيَّ فقط في حالات الحلم والتأمّل، بل في حالة الأوجاع الجسدية أيضًا. وأنا لا أتحدّث هنا في صورة مجازية البتّة، بل أتكلّم عن حقيقة واقعة لا شكّ فيها. فحين أكون مثلًا بين يدي طبيب الأسنان، مستسلمًا لإبره وأزيز آلاته، أغمض عينيَّ طوال الوقت، وأحدّق في مشهد الشاطئ عند شارلوريه الذي

يضحي ملجأ خلاصي. أرى على الدوام من مكانٍ ما، الفندق الصغير، المطلّ على المرفأ الوادع، وأمامهما الشاطئ الرملي الذي يمتدّ فسيحًا، هادئًا، ووراءه المحيط، وفوقه السماء. في هذا المشهد اللازمني، العميق السكون، الماثل في ما يشبه الغسق، تتوقّف نهائيًّا حركة المدّ والجزر، وتختفي أسراب النوارس، وتنعدم أصوات الموج والريح، وتقف في البعيد، وحيدةً قبالة البحر، امرأة مرتدية الأبيض، أو الأزرق الفاهي، يمكن أن تكون آنّا أو سواها لا أدري، تبدو صغيرة الى حدّ الرأفة، ويرتسم مركب أو مركبان نائيان، مبهمان، عند خط الأفق.

لكن المشهد البحري النورماني، على جماله وغنى إيحائه، لا يمكن أن يكتسب هذا الحضور السحري في نفسي لو كان مشهدًا طبيعيًا لا أكثر. فهو على هذا القدر من التأثير، ليس لجماليته فقط، بل لأن جسد آنّا تسرّب إليه. جسد آنّا البهيّ، المقيم في لحظة اكتماله، وهي راقدةٌ ليلًا في ذلك الفندق، تسرّب إلى خلايا المشهد، فباتا موحّدَين. والآن، وبعد أن انقطعت العلاقة مع آنّا، استمرّت بقوّة أكثر، مع مشهد البحر عند شارلوريه، المحتوي جسد آنّا، المشعّ في حناياه، المتّحد معه اتّحادًا نهائيًا، لا ينفصل ولا يزول. انتهت العلاقة مع آنّا وبقيتْ مع المشهد - آنّا. والجسد هنا ليس هو في أيّ

حال، الجسد البحت، بل الجسد الروح. إنه الشكل المرئي للروح، وهو شكلها المرئي الفريد، الأوحد. وهو ليس أيّ جسد، بل الجسد موضع الوله. وقد حرّره الوله، في حالات الوصال، كما في حالات الفراق والعذاب، من مصير الأجساد المعهود، وأولاه طبيعةً نورانيّة. كان الجسد عضويًّا فأضحى نورانيًا. جسد آنّا، الذي سيتغيّر لا محالة مع الزمن، فيفقد شيئًا فشيئًا بريقه، ويهرم، ويضحي كأنّه جسدٌ غريب آخر، سيبقيه الوله كما كان عليه، محفوظًا في لحظة اكتماله، مقيمًا في عريه البهي في ذلك الفندق، متسرّبًا إلى ذلك المشهد ومتّحدًا به. وحين بعد زمن طويل، ستنهار كل الأجساد وتندثر، سيظلّ جسد آنّا حيًّا في مشهد البحر عند شارلوريه طالما بقي ذلك المشهد. وسيبقى حيًّا في مشاهد أخرى أعرفها تمامًا تسرّب إليها، طالما بقيتْ.

- ٢٣ -

لم تؤدِّ ملاحقة جهاز الطاغية تحرّكاتي، على مدى السنوات الأخيرة من إقامتي في مدينة السين، إلى أيّ نتيجة. فهم لم يلحظوا لقاءً واحدًا لي مع أحد أو تصرّفًا واحدًا يمكنهم البناء عليه. لكن الأغرب من ذلك، أنهم استمرّوا في مراقبة آنّا بعد رحيلي. فلماذا آنّا، وماذا يريدون منها؟ علمتُ أحيانًا، واستنتجتُ أحيانًا أخرى من فصول التحقيق معي، أن الجهاز فوجئ بعودتي غير المتوقّعة إلى البلاد، كما فقد أثر آنّا لمرحلةٍ ما، قبل أن يعود فيعثر عليها في أورنوفيل. كانوا يعرفون تمامًا تلك الأنحاء بسبب تردّدنا الدائم إليها ومتابعتهم لنا هناك، كما كان بيت الجدّة وفندق «الملاك الأزرق» من الأمكنة المعهودة لديهم. بدأوا مراقبة آنّا واستمرّوا في ذلك

أشهرًا. لفتهم ذهابها المتكرّر إلى مركز البريد في أورنوفيل، فأخذوا يتبعونها إلى هناك. ذات مرّة استطاع أحدهم الاقتراب منها في صفّ الانتظار، فقرأ اسمي وعنواني بوضوح على المغلّف الذي في يدها، واستنتجوا بعدها أن حركة مراسلة دائمة تتمّ بيني وبينها، وأنه عليهم الوصول بأيّ ثمن إلى مجموعة رسائلي. في وقتٍ ما، لاحظوا أنها لم تعد تتردّد كثيرًا على مركز البريد، فقرروا التحرّك سريعًا خوفًا من مغادرتها أورنوفيل إلى مكان آخر، فتصعب عليهم مراقبتها بهذه الدقّة أو يفقدون أثرها. قرّروا دخول بيت الجدّة في غياب آنّا وتفتيشه بحثًا عن الرسائل. لم يكن ذلك بالأمر المستحيل قطّ. أعلم أن الناس في قرى ذلك الريف العميق لا يحكمون غلق أبوابهم نهارًا، كما أن عدد السكان تضاءل كثيرًا، خصوصًا الشبان منهم الذين ملّوا المطر وسئموا الضباب، فجذبهم بريق العاصمة وحراك المدن الكبرى، بحيث تنقضي ساعات أحيانًا من دون أن يمرّ أحدٌ أمام بيت الجدّة في أورنوفيل. هكذا حصل جهاز الطاغية في نهاية المطاف، عبر مجموعة الرسائل، على «مضبطة اتّهام كبرى» ضدي في نظره، برّرتْ مراقبته لي ثمّ لآنّا طوال تلك السنوات وأدّتْ إلى اعتقالي.

تتوالى زيارات والدتي ورانيا لي كالمعتاد. أجد حرجًا بالغًا في عدم إعلامهما بأيّ شيء عن التحقيقات التي تمّت

معي، وخصوصًا أني أنتظر أن يصل بين يوم وآخر من سيبلّغني التهم الموجّهة إليَّ والنتائج المترتّبة عليها، التي أرجّح أن تكون خطيرة. ثمّ كيف أترك أمّي ورانيا من دون أن أمهّد لهما بعض الشيء عن احتمال نقلي إلى وجهة أخرى لا أعرفها؟ كيف سيكون وقع المفاجأة عليهما إذا ما حدث ذلك، وأيّ حالٍ من القلق والضياع ستصيبهما؟ كلما حاصرتني هذه التساؤلات التي لا جواب لي عنها، دار فكري حتى الإعياء في الحلقة المفرغة نفسها. فأنا أدرك بوضوح خطورة تركهما هكذا من دون أيّ ضوء عن مصيري، وأخشى في آنٍ واحد أن تشكّل كلّ معلومة أوفّرها لهما عنّي تهديدًا لحياتهما، وقد حذّرتني المحقّقة بجدّية وصرامة من ذلك. أقول لنفسي في كلّ مرّة، إنه عليَّ الانتظار قليلًا بعد لتتضح الأمور أكثر. لكن الوقت يمرّ والوضع لا يتبدّل، وجلّ ما أخافه أن يأتي من سيبلّغني التهم على حين غرّة، فينقلونني سريعًا من هنا إلى جهة مجهولة، فألقى أنا مصيري، وتبقى أمّي ورانيا في ظلمة دامسة إلى أجلٍ لا يدركه أحد، أو ربما إلى الأبد، مثلهما مثل عشرات الألوف من ذوي المفقودين في سجون الطاغية، حيث لا يمنّ عليهم النظام بمعرفة ما إذا كان من ينتظرونهم منذ سنين طوال أمواتًا أم أحياء. وتندرج هذه الحيرة الأبدية بين وسائل

العقاب النفسي الجماعي التي يتقنها النظام، وضمن طُرُق الرعب التي أرسى عليها بنيانه.

أخبرتني رانيا أنّها استقرّتْ هي وابنها في بيت الشاطئ، لكن حال عدم الأمان تنتشر في المدينة أكثر فأكثر، ولم تعد تقتصر قطّ على الأحياء الداخلية، وأنّها لا تشعر بالطمأنينة حتى ضمن «مكتبة المعارف»، وأن والدها يشاركها القلق نفسه. ثمّة جوّ من الشائعات يطغى على الحياة اليومية ويمهّد بالتأكيد لما هو أسوأ. منذ الأربعاء الماضي، وقعتْ حادثتا اختفاء جديدتان، إحداهما استهدفتْ امرأة وذلك للمرّة الأولى، لم يُعرَف عن ضحيّتيهما شيء. السمة المشتركة بين كلّ المختفين، الذين وُجِدوا بعضهم مقتولين، والذين لم يُعثَر لهم على أثر، هي صفتهم السلميّة، الأدبية، أو العلمية، أو الإنسانية، وعدم وجود عدوّ لهم، مما يجعل اختفاءهم أمرًا مُحيِّرًا عصيًّا على التفسير. لعلّ من يقومون بأعمال الخطف يهدفون إلى نشر الحيرة لبلبلة النفوس وإضعافها. ولم ينتهِ نهار أمس قبل أن تصدر إنذارات عديدة بوجود قنابل جاهزة للتفجير في بعض مدارس المدينة، مما أدّى إلى غلقها على عجل. اليوم الأربعاء بقيتْ جميع مدارس المدينة ومعاهدها مقفلة. كما بات يُسمَع كلّ ليلة إطلاق رصاص متقطّع، مجهول المصدر، في محيط النهر والقلعة، يوقِظ النيام. وقد أخبرتني

رانيا أيضًا أن مديرة مدرسة «زهرة العلوم للبنات»، وهي الأرقى والأعرق، التي خرّجتْ نخبة المتعلّمات في المدينة منذ أكثر من قرن والتي درستْ هي فيها، قد عبّرتْ أثناء زيارتها الأخيرة للمكتبة، عن تفكيرها الجدّي بنقل المدرسة إلى الضواحي البعيدة، خوفًا من تفاقم الأوضاع ولتجنّب الكارثة.

بعد ذلك التزمتْ رانيا الصمت، ثمّ نظرتْ إليَّ كأنها تتردّد في الكلام. قلتُ لها: «استمرّي يا رانيا». أجابتْ بتأنٍّ وحذر: «تعلم أني أحدّثكَ عن كلّ شيء، ولا أخفي عليك أمرًا». ثمّ أضافت: «ما زلتُ، رغمًا منّي، في هذه الحالة التي أرتاب فيها بحقيقة مشاعري، فأتفحّص ذاتي عن كثب كي أدرك ما أحسّ به حقًّا في أعماقي مجرّدًا من أيّ التباس، وهو أمرٌ صعب المنال. وأنا أذكر ذلك لأن الاضطراب الذي تسرّب إلى المدينة يسري في نفسي أيضًا. ليس بمعنى الخوف والقلق والتساؤل على المصير التي تنتابني، كلا. بل بمعنى آخر أكثر غموضًا. ففي الأسابيع الأخيرة، منذ حريق التكيّة المولوية حتى الآن، أجد أن السؤال الأول الذي يطرحه الناس ومنهم روّاد المكتبة، كلّ صباح، هو: «ماذا هناك اليوم؟». هم ينتظرون جوابًا. أشعر أنهم إذا عرفوا بوقوع حدث مؤلم جديد، يسارعون إلى التعبير عن حزنهم وغضبهم وتعاطفهم مع

الضحية. لكني أشعر أيضًا، أنه إذا لم يقع حدث جديد، يصابون بما يشبه الخيبة. أشعر أني في صورةٍ ما مثلهم. كأن مسلسل الاهتزاز الذي يغشى المدينة، على بشاعته ومأسويته، يلبّي حاجة جماعية لاواعية ما. كأنّه يكسر رتابة الحياة وسأم الأيام المكررة ذاتها وعدم الرضى عن الواقع. كأن فيه شيئًا من الاحتفال». صمتتْ من جديد مثبتةً نظرها عليَّ، ثمّ سألتْ وشعور عميق بالذنب يرتسم في عينيها: «هل ذلك ممكن؟». ابتسمتُ لها بحنوّ وأنا أتأمّل جمال روحها، وامتلكتني رغبة قوية، هذه المرة أيضًا، في ضمّها إليَّ، لكني لم أفعل، وقلتُ لها همسًا: «تحمّلين نفسكِ يا رانيا أحمالًا ثقيلة تنوء تحتها الجبال. تبحثين عن نقاوة الشعور المطلقة في هذه الذات المضطربة، المتألمة، الواعية موتها، الماثلة أمام ظلمة الكون، التي هي ذاتنا البشريّة؟».

## - ٢٤ -

كانت والدتي في لقاء اليوم متّخذةً قرارها، حاسمةً أمرها. قالت لي بعد وصولها بقليل: «اسمعْ يا ابني. لقد فعلنا المستحيل لمعرفة سبب اعتقالك، لكن من دون جدوى. كلّ ما صدر من بيانات الاستنكار الموقّعة من مئات المثقّفين، ذهب أدراج الرياح. ما يهمّ النظام منها هو فقط التقصّي عن محرّكيها ومحاسبتهم، إن لم يكن اليوم فغدًا، حتى لا يعود من يجرؤ على التضامن مهما بلغ شأو الظلم. وها أنت معتَقَل تعسّفًا هنا منذ أشهر طوال، ولم يكلّف أحدٌ نفسه عناء التحدّث إليك. فماذا نحن ننتظر؟ وما ترانا نتوقّع؟ هل نبقى هكذا إلى حين نقلك في ليلة ليس فيها قمر إلى سجن مجهول، فتنقطع أخبارك، وتلتحق بقوافل المعتقلين المختفين الذين يموت

أهلهم كل يوم ألف ميتة؟». ثمّ أضافت: «لم يعد من عدلٍ لدينا ولا قضاء. فبلدنا يغرق في المستنقع كلّ يوم أكثر. ولا يفيدنا بشيء أن يكون الاستبداد الوافد الينا لا يزال مقنّعًا. فالنتيجة هي نفسها، وربما أسوأ. أما زالت هناك بقية من رأي عام؟ آمل ذلك. فأنا قرّرتُ ما يأتي: إذا لم يُطلَق سراحك، أو على الأقلّ لم يُعرَف سبب اعتقالك، من الآن إلى أسبوعين، فسأفترش زاويةً في ساحة البلدة وأعلن الإضراب عن الطعام حتى الموت. هذا هو قراري النهائي الذي لا عودة لي عنه، مهما فعلتَ لإقناعي بغير ذلك».

فوجئتُ بكلامها وما عدتُ أدري بماذا أجيب. لم يبقَ في ذهني إلّا صورة والدتي المقتربة من الخامسة والثمانين وهي تفترش الأرض وترقد في العراء في إحدى الزوايا منتظرةً موتها. أمرٌ مريع لا أقوى على تصوّره، فكيف بعيشه؟ بعد صمت وتفكير قلتُ لها: «اصغي إليَّ قليلًا يا أمّي. كنتِ على الدوام مثال القوّة والصبر في مواجهة المصاعب. انتبهي الآن ولا تخطئي. أنظري إليَّ، فأنا بخير، محتجَز في غرفة وليس في زنزانة، وفي سجن أليف وقريب حيث يمكن الاطمئنان عني وزيارتي، وأنا لم أتعرّض حتى الآن لمكروه. فكِّري يا أمّاه في الذين اختفوا في الأسابيع الأخيرة وهم أبرياء لا ذنب لهم، ولا سبب لاختطافهم، والذين وُجِدوا منهم مقتولين أو

ضاع أثرهم. فهذا هو المصاب الكبير، وليس ما أعانيه أنا. لا بدّ أن ننتظر قليلًا بعد. انتظري معي يا أمّاه، وشجّعيني على الانتظار».

اغرورقتْ عيناها بالدموع ولم تُجب. ثمّ ودّعتني وغادرتْ كالمعتاد من دون أن أدرك ما يدور في خلدها. لم يكن في مقدوري إعلامها بالتحقيق الذي تمّ، أو إخبارها عن موضوع الرسائل، أو أنّهم سيبلّغونني قريبًا التهم الموجّهة إليّ. لكن قرار والدتي أرعبني حقًّا، وبات عليَّ أن أوليه الاهتمام الأقصى، وتقديمه على كلّ الهواجس التي تنتابني.

إنه معطًى مقلق جديد يُضاف إلى الوضع المعقّد الذي أنا فيه عشية إبلاغي التهم المسوقة ضدّي وما سينتج عنها. كيف لي الإحاطة بذلك كلّه، وما العمل لثني والدتي عن قرارها؟ فإذا أتتْ إلى هنا لزيارتي كعادتها ذات يوم جمعة ولم تجدني، فسوف تعمد لا محالة إلى تنفيذ الإضراب عن الطعام حتى الموت. كانت الفكرة الأولى التي لجأتُ إليها أن أصارح رانيا بقرار والدتي وطلب مساعدتها لتطويقها. لكن كيف لي أن أفعل من دون أن أكشف لرانيا عن بعض ما ينتظرني؟ لستُ أدري.

عزمتُ على قراءة الرسائل من جديد، لأدرك ما يمكن

جهاز الطاغية كشفه منها للرأي العام، لمواجهة الإحراج الذي سينتابه إذا نفّذتْ أمّي إضرابها عن الطعام. كنتُ قرأتُ هذه الرسائل مليًّا حين أودعتني المحقِّقة صورًا عنها، كي أعلم ما يمكن أن يجدوه بين سطورها من عناصر اتّهام. قرأتُها محاولًا تخيّل طريقتهم في النظر، البعيدة بما لا يقاس عن نظرتي. كانت تلك القراءة بمثابة عملية تعذيب مارستُها مرغمًا على نفسي، إذ كان ينتابني في كلّ مقطع، في كلّ كلمة منها، الشعور الرهيب بأن جهاز الطاغية تسرّب إلى أعماقي، منتهكًا بجهل وفظاظة أقدس ما عندي، أقدس ما عند كلّ إنسان: خصوصية حياته الداخلية. لكن ما خفّف قليلًا من آلامي أنه يستحيل عليهم على الأرجح التعامل مع لغتها. ليس لأنها مكتوبة بالفرنسية وهو أمرٌ يُحلُّ بالترجمة، وإن كانت صعبة المنال في هذه النصوص التي تندرج في أدب الرسائل، ولا أعرف مدى صحتها أو تشويهها الأصل لأني لم أرَها. بل لأنها مصوغة بلغة أدبية، بينها وبين لغة جهاز الطاغية هوّة لا تُردَم، لا بدّ أن تزيدها الترجمة تعقيدًا. لا شكّ في أنهم عثروا في هذه النصوص الذاتية على «كنز» من الأفكار والمعلومات والمشاعر، التي تتيح في عرفهم كلّ أنواع الاتهامات. وقد تأكّدتُ من ذلك في سياق التحقيق، وعبر الأسئلة الغريبة، العجيبة، التي وُجّهتْ إليّ. فهم الذين يركّبون الملفّات المزوّرة

من ألفها إلى يائها، ويصدرون بناءً عليها أحكام الإعدام والمؤبّد، ما الذي لن يقدموا عليه من تحريف وتحوير في هذا المنجم من النصوص المكتوبة بخطّ اليد التي في حوزتهم؟ فضلًا عن سوء فهمهم العديد منها.

كانت من أغرب لحظات استجوابي حين سألتني المحقّقة عمّا أقصده في بعض النصوص، منها على سبيل المثال المقطع الآتي الوارد في إحدى الرسائل: «كم أستغرب هذا الانتقال السريع، التلقائي، الذي لا يتوقّف، داخل النفس، من قراءة ذلك الخبر المأسوي الذي حدّثتكِ عنه قبل حين، إلى التفكير مباشرةً في أمرٍ آخر لا أهميّة له ولا يمتّ إليه بصلة، إلى استعادة لقاء عاديّ تمّ يوم أمس أم قبله مع شخصٍ ما، إلى تلك الصورة... هكذا بلمح البصر ومن دون رابط، من المأسوية التي لا تُحَدّ، إلى ذكرى بسيطة، إلى فكرة عابرة، إلى حدث ما، إلى مكان لا شأن له. هكذا، على مدى الوقت، على مدى اليقظة، وربما في الرقاد أيضًا، يستمرّ بلا توقّف الانتقال المتسارع «من، إلى». كم أقول في قرارتي: «ألا تخجل من هذا الانتقال؟». أجبر نفسي على العودة مجدّدًا إلى الشيء المؤثر السابق، إلى التركيز عليه، إلى التشبّث به. لكن من دون أن أدري، سرعان ما يأخذ النهر من جديد مجراه الدائم، الأبديّ، الذي لا يتوقّف، وكلّ

لحظة فيه، كلّ موجة، تمحو بلا هوادة ما قبلها. تُرى إلى أين؟».

كذلك استفسرت المحقّقة عمّا تعنيه فكرة الكتاب التي ذكرتها في إحدى رسائلي إلى آنّا، حين أقول: «أفكّر في رواية تجري فيها أحداث الحياة العاديّة، وفي الوقت نفسه، وبصورة متلازمة ودائمة، تنساب على مستوًى آخر أشياء الروح، فتكون موصولة بالأحداث العاديّة، اليوميّة، وبما تحمله من مشاعر وأفكار وظواهر، أو مفصولة عنها، تتخطّاها في كلّ الاتجاهات. الزمن المتوالي إلى الأمام، الحدَثي، السطحي، الزائل. والزمن الدائري، المركّب، المتكرّر، العائد دومًا إلى ذاته، حيث تمثُل كلّ تلك الهواجس، والرغبات، والأحلام، وكلّ ما يربط الحياة الداخلية، بالذاكرة الجماعية، والطبيعة، والكون، منذ فجر التاريخ إلى نهاياته».

وقد تكرّر استفسار المحقّقة حول مقاطع عديدة أخرى، فماذا تراني أقول لها؟

## - ٢٥ -

لن يتوقّف الجهاز بالطبع عند هذه الكتابات الذاتية التي تندرج في عرفه في باب الغرائب، على رغم احتلالها الحيّز الأكبر من الرسائل. ولن يتوقّف أيضًا عند ما ورد فيها عن خراب الطبيعة تحت عنوان «سقوط الملاك»، الذي يتكرّر في متن العديد من الرسائل، مُضافة إليه في كلّ مرة كلمة «تابع». أعبّر في هذه المقاطع عن ذهولي أمام ما حلّ في البلاد من تدمير للمحيط الطبيعي وتشويه للمشهد، بحيث يصعب العثور على منظر واحد غير مطعون بالحراب وغير مثقل بالجراح، في الجبل كما في شاطئه وسهله. وأتأمّل السقوط المريع لهذا المكان، منذ كان رمز الجمال الأرضي في المخيّلة البشرية طوال ثلاثة آلاف عام، إلى ما انتهى إليه الآن، من دون أن يعي

أهله شيئًا من ذلك. وأتوقّف عند الكتابات الرائعة عنه في النصوص السومرية - البابلية، كما في النصوص التوراتية، وفي التراث المسيحي، ثمّ التراث الإسلامي حيث يُوصف بـ«ملك الجبال»، و«حامل عرش القيامة»، وصولًا إلى كتب المئات من الرحّالة الأوروبيين في الأزمنة الحديثة حتى مطلع القرن العشرين، فأورِدُ أحيانًا مقتطفات منها. وأعتبرُ في «سقوط الملاك» أن التشويه الذي أصاب هذه الأرض، وسط جهل أهلها ولامبالاة العالم، هو نذير تصدّعات كبرى وشيكة في الحضارة المعاصرة.

بعيدًا من هذا كلّه، سيتوقّف الجهاز فقط عند ما تحتويه النصوص عن الطاغية ونظامه تحت عنوان «شبح الاستبداد»، الذي يتكرّر هو أيضًا في العديد منها، مُضافةً إليه في كلّ مرّة كلمة «تابع». سيجدون فيه معينًا لا ينضب، لن يتردّدوا في تأويله وتحريفه، إن بالنسبة لكيل التهم إليَّ، أو للردّ على والدتي في حال إقدامها على الصيام حتى الموت، أو على أيّ جهة أخرى تتضامن معي. والحقّ يُقال إن الرسائل، وهي شخصية بحتة وغير معدّة للنشر، تنطوي، إن من حيث الأسلوب، أو من حيث الأفكار والهواجس، على رفض عميق لنظام الاستبداد، وخوف بالغ من فقدان الحريّة، وتنقل بأمانة حالتي عند عودتي، التي اشتدّت مع مرور الوقت.

في مقاطع «شبح الاستبداد»، أسمّي هذه البلاد «آخر الأراضي»، أو «المقاطعة الأخيرة»، وهي البقعة الوحيدة الباقية التي لجأتْ إليها روح الحريّة. وهي لم تكن ملاذًا لأهلها فقط، بل لكلّ أحرار المنطقة طوال أزمنة مديدة. لقد هالني أن أرى وألمس عند عودتي أن ذلك كلّه سيصبح قريبًا، من الماضي. هناك بالطبع خداع للنظر حيث تبدو مؤسسات الدولة، بحكومتها وبرلمانها وقضائها، كأنها تعمل بانتظام وتتجدّد في أوقاتها. لكنه وهم لا طائل تحته. إن شبح الاستبداد، الوافد اليها، تسرّب عميقًا إلى حناياها، بحيث أضحت واجهةً كبيرة، متعدّدة الأشكال والأقنعة، لنظام الطغيان. لكن الأخطر من ذلك كلّه، وهو ما أذهلني وأحزنني إلى أبعد حدّ، أن شبح الاستبداد لم يلج المؤسسات فحسب، بل تسرّب إلى الإنسان أيضًا. أمرٌ لا يُصدَّق. كنتُ أعتقد على الدوام، بصورة أو بأخرى، أن شخصًا مثلي، أو مَن أشبهه ويشبهني، هو الشخص الشائع، العاديّ، الموجود في معظم أنحاء البلاد. وأن الإنسان المتمسّك بحريّته، المنفتح على الآخر، المتسامح، المحبّ للعلم ولتعدّد الأفكار، المحترم الحقيقة، المؤمن بالصالح العام، التائق إلى تحسين نوعيّة الحياة، القائم سلوكه والمستندة مواقفه على مجموعة من القيم والمفاهيم الواضحة، الثابتة، هو الشخص الطبيعي السائد. لكنّي اكتشفتُ فجاةً بعد عودتي أن

مثل هذا الإنسان هو الاستثناء الذي يصعب العثور عليه، وهو الطائر النادر في مجاهل هذه الغابة. فالقسم الأعظم من الناس معروض للبيع والشراء، ولكلٍّ ثمنه. «كم يساوي فلان؟» هي العبارة الشائعة في السرّ والعلن. ومن لا ثمن له من ذوي الشأن والدور المؤثّر، يتمّ اغتياله، أو اختطافه وإخفاؤه، أو الزجّ به في السجون بتهم ملفّقة، أو إذا حالفه الحظ، نفيه إلى الخارج. قضاةٌ ومحامون قُتِلوا في وضح النهار، ومفكّرون وسياسيون وصحافيون اغتيلوا بالرصاص أو فُجّروا بقنابل موقوتة، أو اختفوا إلى غير رجعة، ولم يُعرَف الفاعل ولو مرّة واحدة. وكان الجهاز يرسل من يمثّله إلى جنازاتهم، فيسير في المقدّمة، ويقدّم التعازي إلى الأهل شادًّا على أيديهم، وهم يعرفون، وهو يعرف أنّهم يعرفون، أنه هو القاتل.

أحاول في تلك المقاطع إدراك سياسة الترهيب والترغيب، و«العصا والجزرة» على نحو أدقّ، وقد أذهلتني فاعليتها. أكتب إلى آنّا متسائلًا: «كيف تحوّل أناسٌ أعرفهم منذ حداثتي، ممّن جلسوا معي على مقاعد الدراسة، أو تخرّجوا معي من صفوف الجامعة، إلى ما هم عليه اليوم؟ كيف هؤلاء المفكّرون والبحّاثة، ومعظمهم من أبناء العائلات المرموقة، قد تنكّروا بين ليلة وضحاها، ليس لأقوالهم فقط، بل لكلّ ما ضمّنوه كتبهم ومقالاتهم من أفكار ومواقف، ليحظوا بمقعد

نيابي أو وزاري؟ وكيف أولئك القضاة الذين لا تنقصهم الكفاءة، المتخصّصون في أفضل المعاهد في البلاد وفي أوروبا، يوافقون، مقابل المناصب المُسنَدة إليهم، أن يقفوا كشيطان أبكم وكشاهد زور، أمام كلّ الاغتيالات والتفجيرات التي وقعتْ، فيحضر في كلّ مرة أحدٌ منهم إلى مسرح الجريمة، ويضع التقرير نفسه، من دون أن تصل تقاريرهم التي تُعَدّ بالعشرات، إلى نتيجة واحدة؟ ليس هذا أو ذاك إلّا مثالًا من بين ألوف المثقّفين والمتخصّصين الذين هم في الوضع نفسه، وقد اختاروه وارتضوا به، فكيف بعامّة الناس؟». إن فاعلية الترهيب والترغيب تستند إلى التجربة التي عمّمها نظام الاستبداد في بلاده، وهو يسعى جاهدًا إلى نقلها إلى هنا. وهي تعمل على النحو الآتي: في مرحلة أولى يعمد النظام، من طريق القوّة وأحاديّة القرار، إلى مصادرة جميع الوظائف والأدوار والمصالح المتوافرة في المجتمع. في مرحلة ثانية، يقوم بإعادة توزيعها. ليس على أساس معايير، مثل العلم والاختصاص والخبرة والنزاهة، كلّا، بل على أساس معيار واحد أوحد: الطاعة العمياء للنظام، والولاء المطلق لشخص الحاكم. تؤدّي هذه العملية إلى هيمنة السلطة هيمنةً تامّة على المجتمع، وفي الوقت نفسه إلى تخريب منهجي لقدرات البلاد، وشلّ طاقاتها المعرفية والماديّة، وإغراقها في التخلّف،

ورميها على قارعة الطريق خارج حركة التاريخ. هذا ما حصل هناك، وهذا ما ستشهده بلادنا إذا قُدِّر للنظام ابتلاعها.

لشدة قلقي وتخوّفي، أبيّن في تلك الرسائل كيف يحدث ذلك، فأقول: «يكرّر الجهاز في صورة متجدّدة تجربة الولاة العثمانيين نفسها. يختار في كلّ منطقة من مناطق البلاد وجيهًا، يكون زعيمًا أو نائبًا أو وزيرًا أو ما شابه ذلك، فيسلّمه أمر المنطقة ويحصر فيه عمليًا كلّ سلطاتها متجاوزًا مؤسساتها الشرعية، فيصبح بمثابة الوالي، وفقًا للمعادلة الآتية: «يمنح الوجيه النظام قراره السياسي كاملًا وإلى غير رجعة، مقابل حصوله منه على وسائل النفوذ وعلى المكاسب المادية التي يتقاسمها معه. هذه المكاسب ليست من جيب نظام الاستبداد ولا من ماليّته ، بل من الثروات والموارد العامّة في بلادنا التي يتشارك الوجيه والجهاز في الاستيلاء عليها بشتى الوسائل. هكذا يصبح الوجيه، المجيَّر كليًّا للنظام ولسيّده، هو المرجع الأوحد في منطقته. فهو الذي يوزّع الوظائف والمنافع على الناس، وفقًا لمعيار الطاعة العمياء نفسه، وبناءً على المعادلة نفسها القائمة بينه وبين الطاغية: «يمنح هذا أو ذاك من الناس ولاءه السياسي وولاء أفراد عائلته على نحوٍ مطلق للوجيه، فيحصل منه في المقابل على هذا القدر أو ذاك من المكاسب». هكذا تنهار الحريّات، والقوانين، والعدالة، والازدهار، وقيم

العلم والعمل والمثابرة والنزاهة، وتضمحلّ فكرة الصالح العام، وتنعدم حركة التقدّم. فتبقى في المجتمع الواقع تحت هيمنة الاستبداد، حركة واحدة خاوية هي الآتية: يتسابق معظم الوجهاء لتقديم أنفسهم للنظام، ويتسابق معظم الناس لتقديم أنفسهم للوجهاء. ومن لا يسير في هذه الحركة ينتظره بؤس المصير». أخلص في إحدى الرسائل إلى القول: «تعلمين، أشعر هنا أني في بلد محتّل. وهو محتلّ من أبنائه أنفسهم، وقد تسرّبت روح الاستبداد إلى معظمهم وسلبتهم ذواتهم، فأضحوا بلا هويّة وفي غربة عن أرضهم».

- ٢٦ -

أتحدّث في هذه المقاطع أيضًا عمّا أسمّيه «اليقظة المأسوية للتاريخ»، فأكتب ما يأتي: «انبثقت هذه اليقظة فجأةً في نفسي. شعرتُ بما يشعر به المشرف على الموت من تلخيصٍ مفاجئ لفصول حياته الأهمّ. لكن لم تكن فصول حياتي هذه المرّة، بل فصول حياة بلدي منذ خمسة قرون. كأن الجماعة، في اقترابها مما يشبه موتها، شاهدتْ عبري فصول حياتها الأساسية. مذ تحوّلتْ واحةً للحريّة الى الامتحان المأسوي الذي تجتازه اليوم، وحيدةً أمام سطوة الاستبداد». ثمّ أضيف: «مسألتي مسألة الإنسان الذي يجد نفسه رغمًا منه في انهيارات التاريخ. كنتُ أودّ الاقامة في فسحة التأمّل المستقرّة التي أنشدها. لكن الانهيارات هي حولي من القوّة بحيث لم

يعد من مجال لأيّ فسحة». في مكان آخر من المقاطع أقول: «على رغم خطورة ما يحدث - أو بسببه، أو بمعزل عنه، من يدري؟ - بات من النادر العثور على شخص، على عقل، يملك نظرة متكاملة لما يحدث. إنّه لأمرٌ مأسويّ. على رغم كل المعطيات المتوافرة، المنتشرة، في الوسائل الاعلامية على اختلاف أشكالها، ومباشرةً بين الناس، يصعب إيجاد الشخص الذي يستطيع تكوين «نظرة متكاملة» لما يجري. هذه الضبابية المخيفة في النفوس، هذه الفوضى العقلية والشعورية، فوضى الرغبات والنزعات، التي يتعامل بها الناس مع مصيرهم ومآل حريّتهم، هي نفسها التي يشوّهون بها الطبيعة والمشاهد المحيطة بهم تشويهًا نهائيًا لا عودة عنه. وفي الحالتين، لا يعون ما يفعلون». وأنتهي في إحدى الرسائل إلى الاستنتاج الآتي: «وطني شيئان، جمال الطبيعة والحريّة. فإذا فُقِدا، لا يعود لي وطن».

لا أقف في مقاطع «شبح الاستبداد» عند هذه المخاوف فقط، بل تصل بي هواجسي أيضًا إلى ظواهر اضطراب خطيرة أخرى. فخلال العام الأول من عودتي، شهدتْ بلدتنا والقرى المحيطة بها حوادث انتحار غير معهودة أثارت دهشتي وجذبت اهتمامي، وقد أوردتُها في رسائلي إلى آنّا، وخصوصًا أني أعرف شخصيًا بعض ضحاياها، ولا تزال هذه الحوادث

مستمرّة لكن على نحو متباعد. فالانتحار كان على الدوام ظاهرة نادرة للغاية في مجتمعنا، على رغم أعمال القتل والثأر المعروفة. ولم يكن مضى على وصولي شهر حتى وقعت حادثة مفجعة لا مثيل لها في مدوّنات هذه المنطقة. فقد أقدم طبيب في الأربعين من العمر على قتل زوجته وولديه الصغيرين رميًا بالرصاص داخل بيته، ثم أطلق النار على نفسه. لم تُعرَف في حينه الأسباب وإن كثُرت التكهنات والشائعات كالمعتاد، وقد روى البعض أن الطبيب، وهو من ذوي الكفاءة العلمية والسيرة الحسنة، بدأ يرتاب بخطرٍ ما يهدّده هو وعائلته في الأشهر الأخيرة، وصار يقتني السلاح ويدرّب نفسه على استعماله، إلى أن وقعت الكارثة. ولم يمضِ الكثير من الوقت حتى دوّت فاجعةٌ أخرى في قرية قريبة. فقد قام أستاذٌ جامعي متخصّص في الفلسفة، كنتُ أعرفه من زمان، بنصب كمين لفتاة مغرم بها وهي ذاهبة إلى العمل صباحًا مع أختها وأبيها في سيارة واحدة كالمعتاد، فأردى الثلاثة بالرصاص، ثم عاد إلى بيته، فجلس على كرسيّ في الحديقة وأطلق النار على رأسه. ويُقال إنه لم يحتمل صدّ الفتاة له وارتباطها ربما بعلاقة أخرى.

ما كاد يكفّ الناس عن تناقل الأخبار عن هاتين الحادثتين الغريبتين اللتين هزّتا الوجدان الجماعي، حتى قامت امرأةٌ في

منتصف العمر بإلقاء نفسها في النهر من فوق أحد الجسور. قبل أسبوع، كان أتى ابنها في إجازة من حيث يعمل في الخارج ليعرّفها إلى زوجته الشابّة وطفلهما، فاحتفل الجميع بهذه المناسبة. ولم يكد يطأ أرض المطار مع عائلته في طريق العودة، حتى أقدمت الأمّ على الانتحار بهذه الطريقة المريعة. ولم ينتهِ ذلك العام حتى وقع حادثان آخران: طبيب متقاعد وعازب، كان طوال حياته مثال التفاني والطيبة، ألقى بنفسه ليلًا من سطح الطبقة السادسة في البناية التي يسكنها، وشاب في الثلاثين قصد شاطئ المدينة البحرية ذات مساء عاصف ورمى بنفسه للأمواج.

أثارتْ هذه الظاهرة انتباه الناس وقلقهم، هم الذين لا يعون خراب الطبيعة ولا يُدرِك معظمهم خطورة النظام الوافد إليهم. أمّا أنا فرأيتُ في تكاثر حالات الانتحار على نحوٍ غير مألوف في ماضي هذا المجتمع، علامة اضطراب تتخطّى الشأن الفردي وترتدي طابعًا جماعيًّا مصدره شبح الاستبداد الوالج النفوس. فتوالي ظاهرة الانتحار بهذا الشكل، كانت في نظري ردّ فعل مأسويًّا صادرًا عن اللاوعي الجماعي على خطر فقدان الحريّة المتجذّرة في هذه الأرض منذ قرون، التي لا تتصوّر الذات الجماعية، في عمق أعماقها، نفسها من دونها، وإن طغى على السطح غبار المصالح العابرة، والمنافع الزائلة. وأتوقّف

طويلًا في رسائلي عند هذه الفكرة مبيّنًا مدلولاتها الرمزية.

إنها الساعة الثانية بعد منتصف الليل. لقد أنهيتُ إعادة قراءة الرسائل. وصلتْ إليّ فجاةً في هذه اللحظة رائحة زهر الليمون وقد نشرتْ أريجها الساحر في حنايا الظلمة. هي عطر الليل الذي لا يوصف، العائد بدقّة لامتناهية كلّ عام، بين أواخر آذار وأوائل نيسان، ليعلن الربيع، طالما هناك حدائق برتقال. ومثلما المطر المسائي الهاطل رذاذًا هو مفتاح الاحتفال السحري على ضفّة نهر السين وحافظ الذاكرة الباريسية، فرائحة زهر البرتقال هي روح الأرض التي وُلِدتُ فيها والتي تحضن رفات آبائي وأجدادي، وهي حافظة ذاكرة طفولتي وصباي. ولا بدّ أن حديقةً يتيمة بقيتْ في محيط «حصن الميناء» انبعث منها عطر الليل، أفلتتْ لا أدري كيف من «مجزرة البرتقال» الشهيرة، حين تمّ القضاء على مساحات شاسعة من الجنائن بين الشاطئ والمدينة بهدف تأهيلها للبناء. لن تجد هنا من يرفع لافتةً تقول: «يتم تنفيذ هذا المشروع من دون قطع شجرة واحدة». فالبناء يعني هنا قبل كلّ شيء إبادة الشجر.

كم أشعر الآن وأنا قابع في هذا السجن بالحنين إلى بيتنا، حيث تصل رائحة زهر البرتقال، قويّةً، كثيفةً، من أرجاء

حديقتنا الكبرى إلى والدتي التي لا بدّ أن تكون مستيقظة في هذه الساعة المتأخّرة من الليل وقلبها مليء بالحسرات. وكم سيقرّبها عطر الليل مني مثلما يقرّبني منها، على رغم لجّة الآلام. وكم أنا مشتاق إلى النوم في غرفتي في هدأة هذه الليلة المفعمة بالأريج الساحر، حيث أكون موصولًا برقاد مئات الطيور التي أضحت حديقتنا ملجأها الأوحد، بين أغصان الصنوبر والسنديان والبرتقال والرمّان واللوز، وبين الأصوات الخافتة، المبهمة، الآتية من مجاهل الحياة البريّة، والظلال العميقة التي يرسمها القمر.

## - ٢٧ -

إنه يوم الثامن والعشرين من آذار. صبيحة مضيئة، عذبة، مفعمة كما الليل برائحة زهر الليمون. طلبني آمر السجن منذ قليل وأبلغني أن المحقّق سيحضر لرؤيتي بعد الظهر. كنتُ أتوقّع ذلك بين يوم وآخر فلم أفاجأ به. لم تكن هذه المرّة المحقّقة هناء التي دخلتْ غرفتي، بل رجل في نحو الخامسة والأربعين، ببزّته العسكرية، ووجهه المتجهّم، وشاربيه الدقيقين، وصوته الرتيب، عرّف عن نفسه بأنه «المقدّم سالم»، وضع على الطاولة أمامي ملفًّا قائلًا لي: «هذه هي لائحة الاتّهامات الموجّهة إليك. لستُ مخوّلًا الاستماع إلى رأيك أو النقاش معك في أيّ أمر. المحكمة الخاصة هي التي ستستمع وتناقش وتصدر الحكم». أعلمني بعد ذلك أنه سيمرّ

عليّ ربما يوم غد لإبلاغي بعض التفاصيل الأخرى، ثم انصرف.

كان مضمون الملفّ الاتّهامي مفهومًا من عناوينه البارزة على صفحته الأولى: «التعامل مع جهة أجنبية، للتآمر والافتراء على الدولة، وتشويه سمعتها وصورة رئيسها ونظامها، ونسج الأكاذيب والتهم الباطلة في حقّها، والتحريض عليها، وتعريض استقرارها وأمنها الوطني للخطر». قرأتُ التقرير بكثير من الانتباه، وعمدتُ إلى وضع ملاحظاتي على كلٍّ من فصوله الحافلة بالتحريف، مع علمي الأكيد أنها لن تفيدني في شيء. أدركتُ من أحكامه الختامية أنّي سأواجه على الأرجح حكم الأشغال الشاقّة المؤبّدة. ولفتتني فيه مقاطع كثيرة أُورد منها على سبيل المثال: «ولا ينفع المتّهم القول بأن ما كتبه يندرج في نطاق الرسائل الخاصّة بين شخص وآخر مما لم يكن مُعدًّا للنشر. فما كتبه يعبّر، أوّلا، عن حقيقة تفكيره من دون أيّ إكراه أو إبهام. وهذه الرسائل الخطيرة كانتْ معرّضة، ثانيًا، للتسرّب في أيّ وقت، لهذا أو ذاك من أجهزة المخابرات الغربية التي كانت ستمعن في استخدامها ضدّ دولتنا ومؤسساتنا وشعبنا، لولا إقدام جهازنا الأمني على ضبطها في الوقت المناسب، نتيجة عمله البطولي في أمكنة خارجية يصعب التحرّك فيها، وفي ظروف قاسية عرّضتْ رجاله لشتّى

الأخطار». وفي مقطع آخر يرد ما يأتي: «وإضافة إلى الأفكار والتحليلات الجائرة التي يصف فيها المتّهم الدولة مما فصّلناه أعلاه، وإلى النعوت التي يضفيها على شخص سيادة الرئيس مما ذكرناه من قبل، فهو لا يتورّع، في مهبّ الحقد الذي يعتمل في نفسه، عن اتّهام النظام بالوقوف وراء انتحار أشخاص عاديين لا علاقة لهم البتّة بأيّ نشاط سياسي، ولا يضايقون أحدًا في شيء. ويمثّل ذلك ذروة الافتراء والعبثية اللذين تحفل بهما هذه الأوراق السوداء».

لقد كُتِب إذًا ما كُتب، وعليَّ تحضير نفسي لمواجهة مصيري. ما هي هذه «المحكمة الخاصّة» التي ستنظر في قضيتي، وماذا سأتوقّع منها غير الأشغال الشاقّة المؤبّدة؟ إلى أيّ سجن مجهول سينقلونني، وفي أيّ زنزانة مرعبة سيرمونني؟ وهل سيمنحونني فرصةً ما لأُعلِم والدتي ورانيا بأيّ شيء؟ لستُ أدري. كان انتظاري احتمال عودة المقدّم سالم يوم غد طويلًا مضنيًا، خصوصًا الليل الذي حفل بشتى الهواجس والكوابيس. وجدتُني في ذلك الحلم في مكان قريب، كأنه مستشفى من طبقات عدة. رأيتُ في إحدى غرفه رجلًا وزوجته ومعهما الخادمة، وهما متحلّقان حول سرير صبية، هي ربما ابنتهما، أو هي شخصٌ عزيز كثيرًا عليهما. ثمّة أمرٌ رهيب يخصّ هذه الصبيّة، لا أعرف ما هو - وفي الحلم

لم أعرفه أيضًا - كان من المفضّل، يا للهول، أن تُعطى الموت للخلاص منه. ما هو هذا الأمر الأفظع من الموت؟ كان تمزّق الزوج والزوجة مفجعًا للغاية، كذلك حيرة الخادمة. مع ذلك طلبا من الطبيب الذي حضر، أن يحقنها بدواء ما، يميتها. بعد ذلك، صعد الطبيب إلى إحدى الطبقات العليا. كان الثلاثة، الرجل والمرأة والخادمة، متحلّقين حول الصبيّة التي لا بدّ أنها فارقت الحياة. لكنها فجأةً بعد حين، فتحتْ عينيها ونظرتْ إليهم. أصيبوا بالذعر، ليس مما فعلوا، كلا، بل من هذه الحالة المستجدّة، غير المتوقّعة، حيث تصبح الفتاة بين الموت والأمر الآخر الذي طُلِب لها الموت من أجله، أو بين الموت وحالة من الحياة الغريبة التي أخافتهم إلى أبعد حدّ. على رغم حبّهم الشديد لهذه الفتاة، سيطر عليهم الهلع، وأخذ الرجل يصعد طبقات المستشفى بتصميمٍ وحدّة لإيجاد الطبيب وإعادته ليُكمل المهمة. كان يبحث عن الطبيب صعودًا من طبقة إلى أخرى، مهرولًا، مرعوبًا، حين استفقتُ وأنا أرتجف.

إنّها الرابعة فجرًا. أحدّق في الكوّتين الكبيرتين المستديرتين وقد فارق النوم عينيّ، أشعر بحنوّهما عليَّ ورأفتهما بي، كأنّي أنتظر أن يدخل منهما طائرٌ ما، أم ملاكٌ ما، يُخرجني من هنا.

في الصباح المبكر عاد المقدّم سالم. سألني إذا قرأتُ

التقرير الاتهامي. أجبته «أجل». سألني إذا كنت أُدرك ما ينتظرني. أجبته «أجل». قال لي: «ما سيحدث هو الآتي: سيتمّ نقلكَ إلى معتقل بلعة الصحراوي حيث ستجري محاكمتكَ وسجنكَ وفقًا للقرار الذي سيصدر عن المحكمة الخاصة». ثمّ أضاف: «تستطيع إذا شئت إبلاغ ذويك عن المكان الذي ستقضي فيه عقوبتكَ، كما عن التهم الموجّهة إليكَ، شرط ألّا يصل شيء من ذلك إلى الإعلام. إحذرْ من وقوع مثل هذه الهفوة، فهي تؤدّي على الأرجح إلى اختفائك النهائي، أو ربما إلى مقتلك وأنتَ تحاول الهرب. إن لم تكن متيقّنًا من قدرة ذويكَ على ضبط السرّ، فلا تقل لهم شيئًا». تساءلت في قرارتي لماذا يسدي إليَّ النصح، فلم أجد جوابًا.

بعدها حدّق فيَّ مليًّا، ثمّ قال لي: «انتبه. سأبلغك الآن أمرًا بالغ الخطورة، يجب ألّا يخرج مطلقًا من بين جدران هذه الغرفة». وبعد صمت بدا لي كأنه دهر، تلفّت حوله وأضاف همسًا: «كون رسائلكَ بقيتْ طيّ الكتمان ولم يُنشَر شيءٌ منها، نظر سيادة الرئيس إلى وضعك، وهو مستعدّ لمنحكَ عفوًا خاصًّا ولمنع المحاكمة عنك، شرط أن تقوم بما يأتي: تتولّى كتابة قصة حياته وتاريخ عائلته». تفحّصَ عن كثب دهشتي العميقة، ثم قال: «إنّه لشرف عظيم يُعطى لكَ. أنتَ لا تعلم عدد الكتّاب والمؤرّخين الذين يتسابقون لنيل هذه الحظوة.

لكني لا أدري لماذا يريدكَ سيادة الرئيس أنتَ دون سواك».
بعدها، قال لي وأنا لا أزال غارقًا في ذهولي: «في حال موافقتكَ، ستُمنح عامًا كاملًا لإنجاز العمل. لقد فكّرنا في كلّ شيء. ستُنقَل إلى جامعة العاصمة حيث ستوضع في إقامة جبريّة مقنّعة. ستُزوَّد هناك كلّ الوثائق والصور اللازمة لإتمام مؤلّفكَ. بعد ذلك سيُطلَق سراحكَ. وإذا سار كلّ شيء على ما يرام، ستُعرَض عليك على الأرجح وظيفة ثقافية أو إعلامية مرموقة في الدولة. تستطيع في هذه الحالة أن تُخبر ذويكَ بمكان إقامتكَ الجديد في حرم الجامعة، وأن تبرّر وجودك هناك بأن تحقيقات إضافية تتمّ في شأنك، وبأنه ليس ثمة ما يدعو إلى القلق. شرط، هنا أيضًا، ألّا تصل ذرّةٌ واحدة من ذلك كلّه إلى الإعلام». ثمّ أضاف مودّعًا: «أمامكَ حتى صباح غد لتتّخذ قراركَ. فإمّا طريق سجن بلعة، وإمّا طريق الكتاب».

## - ٢٨ -

بعد أن خرجتُ شيئًا فشيئًا من ذهولي، قلتُ لنفسي: «هكذا إذًا؟». لقد اتّضح أمامي الآن كلّ شيء. لا شكّ في أنّ يد الطاغية كانت مباشرةً وراء ملاحقتي طوال تلك السنوات. فلا بدّ أنّه كان يولي مجلة «مرآة الشرق» اهتمامًا خاصًا ويعتبرها العنوان الأرقى لنظامه في الغرب، مراهنًا على دورها في تحسين صورته. لذلك بُذِلت الجهود، ودُفِعت الأموال، لجعلها تضمّ مجموعة من الوجوه والأقلام المعروفة، المقيمة في معظمها في العواصم الأوروبية، وغير المتورّطة في نشاطات مثيرة للشبهات. أغلب الظن أنّه كان يطّلع على المجلة، وقد جذبتِ انتباهه قضية هذا الكاتب الذي هو أنا، الذي يتهرّب من قبض ثمن مقالاته لأسباب مجهولة، والذي

يرفض العودة إلى الكتابة على رغم الإغراءات المالية الكبيرة المقدّمة إليه. ما لفتَ نظره هو على الأرجح فرادة هذه الظاهرة وغرابتها، ما جعله يرغب في فهم دوافعها، وجلاء شخصية صاحبها، وصولًا إلى مراقبتي الدائمة على مدى تلك المراحل. وأغلب الظنّ أن يكون هو الذي أوعز برفع الإغراءات المعروضة عليَّ آنذاك إلى حدّ «الشيك على بياض»، لكن من دون جدوى. وأرجّح أنّ عدم تحقيق مراقبتي وملاحقتي أيّ نتيجة، نظرًا لابتعادي عن كلّ نشاطٍ عام وعزلتي وغوصي في عوالمي الذاتية، قد قوّى فضول الطاغية تجاهي وعمّق رغبته كشف سرّي. فلا شكّ في أنّه هو الذي أوعز بمراقبة آنّا بعد عودتي على أمل التوصّل إلى شيء ما حولي. وليس إلّا عبقريته وتوجّسه الرهيب من الأخطار المحيطة به في كلّ مكان، اللذان أوحيا إليه بأن شخصي ينطوي حتمًا على أمور معادية لا بدّ له من إدراكها، وإن كان لا يوجد أيّ دليل من أيّ نوع عنها. وأعتقد أن العثور في نهاية المطاف على رزمة الرسائل أسرّه كثيرًا، لأنّه أكّد له مرّةً أخرى حدسه الذي لا يخطئ والذي نجّاه من أخطارٍ لا تُحصى، وأوقعني بعد طول انتظار في قبضته.

غريبٌ القدر. كم هي صحيحة العبارة التي تقول: «لا تخشَ شيئًا، فما يخشاه المرء يقع فيه». لم يجنّبني هاجس

الحريّة المتجذّر في ذاتي، ولا خوفي الدفين من فقدانها، ما كنتُ أهرب منه على الدوام وأُقصي نفسي عن كلّ مكان ينوجد فيه: ظلّ الاستبداد. فتوقي إلى حواضر الغرب وعوالمه، وخشيتي التجوال في أنحاء المشرق، المرتكزان على هذا الهاجس، كانا في الحقيقة خدعةً مأسوية كبرى من خِدع القدر. كذلك بعدي عن النشاط السياسي والعمل العام، وانصرافي إلى داخل ذاتي. فقد كان شبح الاستبداد متربّصًا بي حيث اعتقدتُ أنّه المكان الأكثر بعدًا عنه: ضفاف نهر السين. وكان يكفي أن أقترب قليلًا، في لحظة تخلٍّ، من تلك المجلّة، فأنشر فيها باسمٍ مستعار مقالات أربعًا عن أربع مدن أوروبية، قبل أن أرفض قبض ثمنها وأمتنع نهائيًّا عن متابعة الكتابة وأختفي عن الأنظار، حتى أقع من دون أن أدري في مرمى الاستبداد وداخل حلبته. لقد ولجتْ عين الاستبداد عبر الاستيلاء على رسائلي إلى أعماق حياتي الداخلية، وهذا أبشع ما يمكن أن يُصيب شخصًا مثلي. كما لوّثتْ وهي تلاحقني في الخفاء، كلّ الأمكنة والمشاهد التي أحبّها، فلم يبقَ لي شيء من ذلك الماضي إلّا وأفقده الاستبداد ذاتيّته ونقاوته وسحره. وفوق ذلك كلّه، خسرتُ أقدس ما عندي: حريّتي.

«إمّا طريق سجن بلعة، وإمّا طريق الكتاب؟». خيارٌ موهوم لا يؤدّي إلى أيّ منفذ. فالطريقان يقودان إلى المكان نفسه. لقد

أطبقَ الطاغية عليَّ فعلقتُ في شبكة عنكبوته، التي لا خروج لي منها بعد اليوم. فمن الواضح أنه لا يعطي الأولوية معي للعقوبة الجسدية، بل لما هو أعظم وأدهى: قتل الروح. فقتل الجسد أمرٌ سهلٌ عليه، وفي رصيده منه على مدى حكمه الطويل مئة ألف قتيل. أما قتل الروح فهو الأصعب، وهو الأجدى، وهو الأكثر مسرّةً على قلوب الطغاة. وبما أني ارتكبتُ في الأساس «جرمًا فكريًا» هو رفض الكتابة في مجلّة «مرآة الشرق»، ولو باسمٍ مستعار، ولو عن المدن الأوروبية، فالعقوبة القصوى ستكون من النوع نفسه، وهي كتابة قصّة حياة الطاغية وتاريخ عائلته، غصبًا عني، وفي مؤلَّفٍ يحمل اسمي وتوقيعي. وهي ليست أيّ قصّة، بل تلك التي يريدها الطاغية لنفسه، القصّة الرسمية التي سيضع على غلافها صورته، الصورة الماثلة أمامي منذ أشهر طوال في سجني. ولأنّه يهدف إلى قتل الروح باستمالتي إلى كتابة قصّة حياته، استعمل معي حتى الآن الترهيب المخفّف، بتوقيفي في سجنٍ لائق وعدم تعريضي في أيّ وقت للإذلال او التعذيب. لكن هذه المرحلة انتهت الآن إلى غير رجعة. وعليَّ الاختيار من الآن إلى صبيحة يوم غد بين طريق سجن بلعة وطريق الكتاب. أعلم علم اليقين أني لن أكتب هذا الكتاب. فإذا كنت أدركتُ أني لو قبضتُ ثمن تلك المقالات، أو عاودتُ الكتابة في تلك

المجلّة ولو عن أمور ثقافية وجمالية، لتغيّرت علاقتي بنفسي على نحوٍ لا أحتمله، ولفقدتُ صفاء ذاتي، وصفاء نظرتي إلى ذاكرتي وإلى حاضري، وإلى الأشخاص والأشياء والأمكنة البهيّة الحضور في داخلي، ولارتكبتُ خيانةً لصورة طفولتي، ولوجه والدي ووالدتي، ولذكرى مَن علّموني، ولكلّ مَن عرفتُ وأحببتُ في حياتي، فماذا سيحدث لي الآن غير قتل روحي إذا ما كتبتُ هذا الكتاب؟ من المستحيل أن أفعل.

لكنّي، مع ذلك، سأبلّغ المقدّم سالم صباح غدٍ أني اخترتُ طريق الكتاب. لأني أعلم أن اختياري سجن بلعة لن يغيّر في الأمر شيئًا. فلن يكون هذا السجن إلّا وسيلة سيستخدمها الطاغية لتحطيم إرادتي برميي في زنزانة ترتادها الجرذان وإخضاعي لشتّى أساليب التعذيب النفسي والجسدي، كي يطرح عليَّ من جديد الخيار نفسه: الزنزانة أم الكتاب؟ كذلك أعلم أني إذا اخترتُ الكتاب، وبعد عام لم أفِ بوعدي، فسوف يكون مصيري الزنزانة نفسها مع مضاعفة تعذيبي، ووضعي مجدّدًا بعد أسابيع أو أشهر أمام الخيار عينه: الجحيم أم الكتاب؟ لن يفكّ الطاغية عن ملاحقة قتل روحي حتى النهاية.

سأختار طريق الكتاب ولو كانتْ ستودي بي بعد عام إلى

جحيم بلعة، أو زمهر، أو أيّ سجن مماثل، مع عذابات مضاعَفة أضعافًا. سأكسب بعض الوقت، ما يتيح لي رؤية أمي، ولقاء رانيا، لمدّة عام. كما سأحاول قبل انتقالي من هنا إنقاذ مفكّرتي التي أحضرتْها لي والدتي سرًّا قبل أشهر، فأعيدها إليها سرًّا خلال زيارتها المقبلة لي، وأطلب منها إخفاءها في مكانٍ آمن يستحيل اكتشافه، وإخبار رانيا وحدها به. كما سأعمل على إيداع رانيا سرًّا هذه الأوراق الحاوية يوميات «حصن الميناء» علّه يتمّ نشرها ذات يوم. سأقول لها في شأنها ما يأتي: «إقطعي لي يا رانيا وعدًا على نفسك بأنكِ لن تفتحي هذا المغلّف، وعند أوّل سفرٍ لكِ إلى الخارج، أحمليه معكِ وضعيه في خزانة ائتمان في أوروبا لا يصل إليها أحدٌ سواكِ. افتحي المغلّف واقرإي أوراقه وانشريها في كتاب، في حالة واحدة: إذا مات الطاغية وانهار نظامه، سواء أكنتُ أنا حيًّا أم لا، لا فرق».

هل أنجح في ذلك؟ لا أدري حقًّا. أعلمُ أنّي عالقٌ في شبكة عنكبوت الطاغية الرهيبة، ولا خلاص لي منها إلّا بأحد أمرين: موتي، أم موته وانهيار نظامه. لكن مهما يكن من أمر، يغمرني الآن هدوء غريب بعد أن اتّخذتُ قراري وحسمتُ أمري. أنظر إلى الكوّتين الكبيرتين المستديرتين اللتين تغشاهما الظلمة وأشعر بأنّ قَدَرًا يحميني. أشعر بأن قربي من طفولتي،

وطيف والدي، وصورة والدتي، وحبّ رانيا لي، وحضور ذاكرتي القويّ فيَّ، والجمالية والرأفة اللتين أرنو بهما إلى الكائنات والأشياء، وكلّ الوجوه التي همتُ بها، وكلّ المشاهد والأمكنة التي ولجتْ ذاتي، واقترابي الدائم من باب الأسرار، وكلّ تلك الظلال غير المرئيّة الآتية إليَّ لا أعلم من أين، التي تخفر وحدتي في كلّ آن، ترسم حولي هالةً تحميني وتلازمني كظلّي أينما حللت. وأشعر بأن اللغات التي أحبّها تنسج حولي نقابًا من الكلمات كأنّه درع سحريّة. وأشعر أيضًا بأن ألوف الطيور ومئات الأشجار الموصول بها والموصولة بي في حديقتنا الكبرى، وكلّ الأشجار الباسقة التي عرفتُها وعرفتْني عن كثب خلال صبايَ الأوّل وهجرتي، ترافقني وتحرسني على طريقتها. كما أعلم علم اليقين أنّ الواقع، كلّ واقع، يوحي بأنه أقوى بكثير ممّا هو عليه. وأنّ كلّ واقع، حتى الأكثر متانةً واستقرارًا، تسري في أنحائه حركة تحوّل دائمة لا تتوقّف، ظاهرةً أكانت أم خفيّة. وأنّ كلّ واقع مسكون حتمًا بالتناقض والعطب والهشاشة، المودية به عاجلًا أم آجلًا، إلى الانهيار. إنّ الألوف المؤلّفة من المعذّبين في أجسادهم ونفوسهم، والألوف المؤلّفة من المقتولين الواعين موتهم، لا تضيع صرخاتهم وحشرجاتهم كالهباء المنثور، ولا هي تذوب في ذرّات الهواء فتبدّدها الرياح، كلّا، إنّها تتسرّب عميقًا إلى

خلايا النظام وعروقه وشرايينه، حيث تصنع له موته. لا أحد يعلم تلك الساعة. فجأةً بعد يوم، أو شهر، أو عام، أو أكثر، يترنّح شبح الخوف داخل النفوس لا أحد يُدرك لماذا، فيخرج الشعب كالنهر الهادر ويأخذ في طريقه كلّ شيء. وعندما تُنشَر هذه الأوراق في كتابٍ لا أعرف عنوانه، ستكون من بين اليمام الحامل براعم الزيتون، المنبئ بانتهاء الطوفان، المعلن فجر الحريّة.

**للمؤلّف**

عن دار النهار للنشر:

**كتاب الحالة**

١٩٩٣

**حديقة الفجر**

١٩٩٩

**رتبة الغياب**

٢٠٠٠

**الخلوة الملكيّة**

٢٠٠١

**عبور الركام**

٢٠٠٣

يهبط المساء على «حصن الميناء» وتغشى الظلمة الكوّتين المستديرتين. إنه ليلٌ آخر يحلّ عليَّ في سجني لا بدّ لي من اجتيازه. أرزح تحت وطأة فقداني حرّيتي، وجهلي المستمرّ لسبب اعتقالي، وغموض مصيري، إضافة إلى اختناقي في هذه الغرفة المقفلة، العديمة النوافذ، حيث صورة الطاغية المثبت نظره عليَّ بلا كلل. وأستمدّ قوتي من حياتي الداخلية ومن قدرتي على الصمت، ومن هذه العزلة التي هي عزلتي، حيث يحيط بي ويحرسني أشخاصٌ غير مرئيين يخترقون جدران «حصن الميناء» السميكة وهم أكثر حياةً من كلّ الذين يحيون، أجدادي الذين عرفتُهم طفلاً، وأهلي ورفاق صبايَ الأوّل، وأحبّة هجرتي الطويلة، والذين ماتوا صغاراً، والذين سافروا ولم يعودوا، والذين حوصروا في السهول الوسطى في أغاني والدتي الحزينة ورفضوا الاستسلام حتى الرمق الأخير.

**أنطوان الدويهي**، روائي وشاعر ومفكّر لبناني، أستاذ جامعي في الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. صدرت له عن «دار النهار للنشر» بين العام 1993 والعام 2003 الأعمال الأدبية الآتية: «كتاب الحالة» (شعر)، «حديقة الفجر» (سرد)، «رتبة الغياب» (سرد)، «الخلوة الملكيّة» (سرد)، و«عبور الركام» (رواية). إضافةً إلى مؤلّفاته الأكاديمية ومئات المقالات.











www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com

**لوحة الغلاف:** تفصيل من مائية لأمين الباشا، 2011